الطريقُ إلى الربَّانية

الطبعة الثانية

١٤٤٣هـ - ٢٠٢٢م

رقم الإيداع

في دار الكتب المصرية

٢٨٠٦ / ٢٠٠٩م

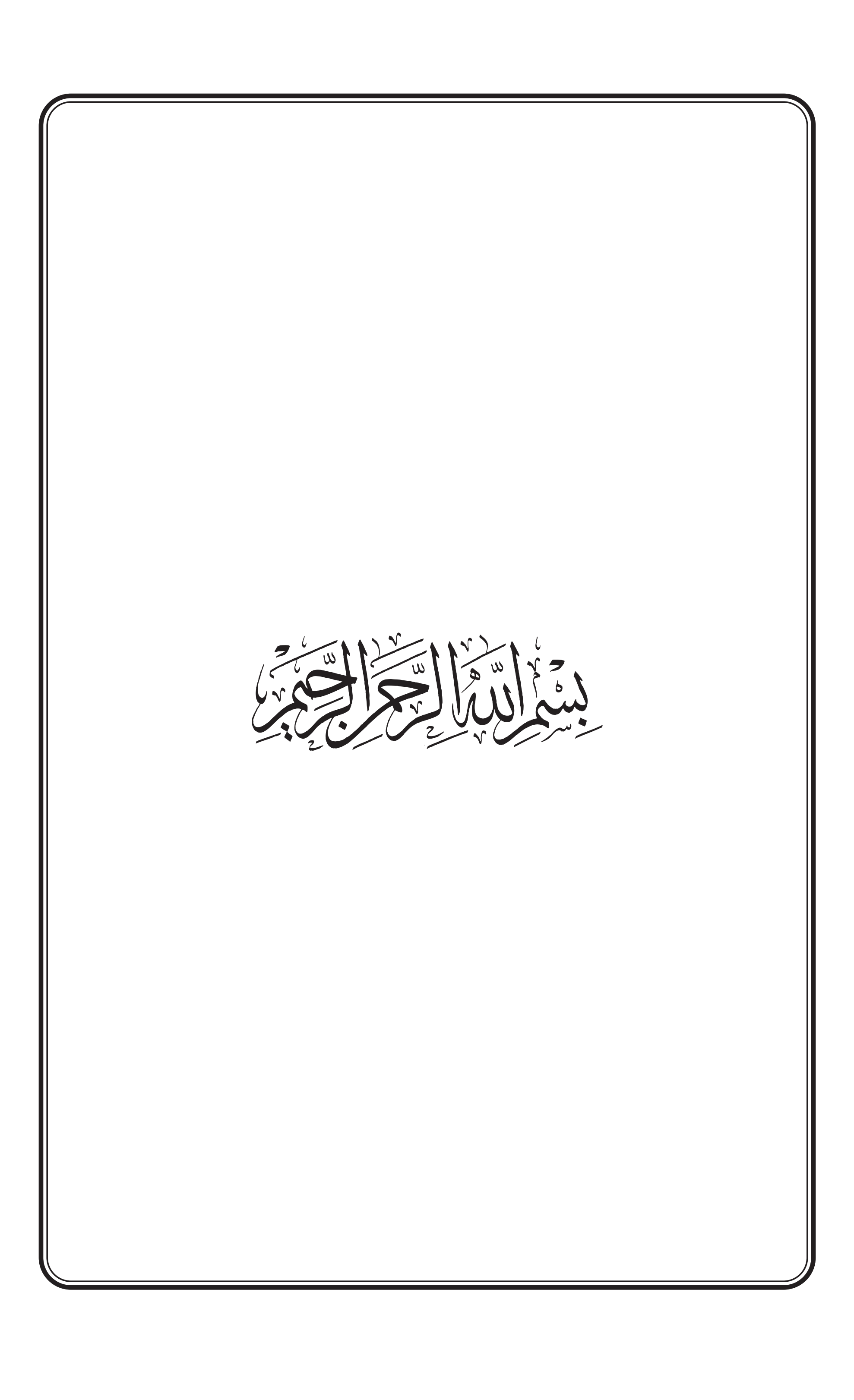
الترقيم الدولي : I.S.B.N

٩٧٨-٩٧٧-٤٥٦-١٩٥-٦

الطريقُ إلى الربّانية

طبعة جديدة مزيدة ومنقحة

مجدي الهلالي


بسم الله الرحمن الرحيم

المقَـدّمَة

رب يسِّر وأعِن يا كريم

الحمد لله رب العالمين، رب الأولين والآخرين، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد..

فمَن منا لا يريد أن يكون كما يحب ربُّنا ويرضى؛ يبكِّر في الذهاب إلى المسجد، وينتظر الصلاة بعد الصلاة.. يستيقظ في جوف الليل ليناجي ربه، ويُرسل العَبرات تلو العَبرات.. يتصدَّق فلا تعلم شماله ما تنفق يمينه.. خاشعًا في صلاته، مُقبلًا بقلبه على ربه.. طويل الدعاء.. كثير الذكر.. زاهدًا في الدنيا راغبًا في الآخرة.. راضيًا بقضاء الله وقدره.. يُسارع في الخيرات، فيساعد المحتاج ويسعى في نجدة الملهوف.. يصل مَن قطعَه ويعطي مَن حرمَه ويعفو عمَّن ظلمه...

... نعم كلنا يتمنى أن يكون كذلك ولكننا لا نستطيع.. ندخل إِلى الصلاة فتتزاحم علينا خواطر الدنيا.. نفتتح القراءة في المصحف فتهرب منا القلوب في أودية الحياة.. نقرأ أو نسمع عما يجب أن نفعله فنتأثر وننفعل ونضيق بحالنا ثم نظل كما نحن في أماكننا... نتبارى في تشخيص الداء، ونعجز عن تناول الدواء.

فما السبب في ذلك؟ أليس في قلوبنا إيمان؟ فلماذا لا يدفعنا هذا الإيمان إِلى العمل الصالح؟ لماذا كان الصحابة والسلف وصالحو هذه الأمة على مر العصور

يطابق فعلهم قولهم، أما نحن فنتكلم ونتمنى ونحلم ولكننا لا نستطيع التنفيذ؟

هناك بلا شك حلقة مفقودة بين العقل والقلب.. فالعقل يقرأ ويستمع ويقتنع، ويشير على القلب.. والقلب قد يتأثر بذلك ولكنه لا يستطيع أمر الجوارح بالتنفيذ.. أتدرون لماذا؟!

لأنه مأسور بالهوى وحب الدنيا، مشدود إِلى الأرض، مكبل بشهواتها..

.. نعم في القلب إيمان بالله واليوم الآخر، يظهر أثره من خلال ما نؤديه من أعمال صالحة.. وفي المقابل فإِن حجم الدنيا في قلوبنا نستطيع أن نتبينه بوضوح من خلال الكثير من تصرفاتنا التي تعكس مدى تعلقنا بها.

من هنا يتأكد أننا لا نستطيع أن نصل إلى مرحلة القدرة على فعل ما يحب ربنا ويرضى إِلا إِذا حررنا الإرادة وخلّصنا القلب من سلطان الهوى وأسلمناه لله ﷻ، قال تعالى: ﴿ **فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾ [النساء: ٦٥].

فلا بد من مجاهدة النفس وخوض معركة التحرير، وتخليص القلب من أسره؛ ليبدأ اتصاله الحقيقي بالله عَزَّوَجَلَّ.

قال رسول الله ﷺ: «... **وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُسْلِمُ عَبْدٌ حَتَّى يُسْلِمَ قَلْبُهُ لِلَّهِ** عَزَّوَجَلَّ»[١]. وإسلام القلب لله واتصاله الدائم به هو ما يعبر عنه العلماء بالربانية، فالربانيون هم أولئك الذين نصروا الله على نفوسهم، فأكرمهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالولاية والنصرة والمعية في الدنيا والفوز والنعيم والقرب في الآخرة، فإِذا ما أراد الواحد منا

(١) رواه الإمام أحمد عن ابن مسعود (٦/ ١٨٩ برقم: ٣٦٧٢).

أن يكون من هؤلاء فلا بد له من تحرير قلبه وبث الروح فيه ليصبح قلبًا حيًّا يبدأ به سيره إِلى الله عَزَّوَجَلَّ.

قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

فلا سير إِلى الله إِلا بالقلوب الحية، ومهما قرأنا وسمعنا وتأثرنا فسنظل نراوح في أماكننا، نُبدي الأسف والضيق من حالنا ما لم نبدأ بتلك البداية.

فإن قلت: بل نحن مقتنعون تمام الاقتناع بما ذكرت، فهو ليس بجديد علينا، ولكن يبقى السؤال الذي يدور في الأذهان وهو: كيف نترجم هذه الحقيقة إِلى واقع؟!

لا أكتمك القول -أخي القارئ- بأن سؤالك هذا يتردد أيضًا بداخلي مثلما يتردد بداخلك، وهو الذي دفعني لكتابة هذه الصفحات -الطريق إِلى الربانية.

... نعم إنه موضوع يحتاج إِلى أن يتناوله من هم أهله لنجلس نحن المتطفلين في أماكننا الطبيعية، أماكن الاستماع والتلقي... ولكن مع وجود كمٍّ لا بأس به من الكتابات التي تتحدث في هذا المجال، ومع ما فيها من كلام جيد إِلا أنها لم تجب إجابة وافية -والله أعلم- عن السؤال: من أين نبدأ؟ وكيف نسير؟

وليس معنى هذا أننا سنُجيب عن هذه الأسئلة بصورة قاطعة -ومن نكون حتى ندّعي ذلك- ولكنها محاولة استعنا فيها بالله عَزَّوَجَلَّ لإلقاء الضوء حول بعض الموضوعات المهمة التي قد تشكل في مجملها خطًّا سهلًا ميسرًا للربانية.

وفي الصفحات التي بين يديك -أخي القارئ- عدة فصول تدور حول معنى الربانية، وموقعنا منها، ومدى حاجتنا إِليها، والدليل الذي يدل عليها، والطريق الموصلة إِليها، وأخيرًا العقبات التي قد تعترض السائر في طريقها.

نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن ينفع بها، وأن يتقبلها منا بفضله وإحسانه، ويتجاوز عما فيها من أخطاء وزلات، إِنه سميع مجيب.

﴿سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٣٢﴾ [البقرة: ٣٢].

الفصـل الأول

معنى الربانية

- لغة وشرعًا.
- الإنسان بين السماء والارض.
- كيف يؤسر القلب؟
- معنى الفطرة.
- الولادة الثانية.
- علاقة الإيمان بالربانية.

معنى الربانية

لغة وشرعًا:

يجدر بنا في البداية أن نحدد معنى الربَّانية لننطلق من خلاله إِلى معرفة مكاننا بالنسبة إِليها.

يقول ابن الأثير: الربَّاني هو المنسوب إِلى الربِّ بزيادة الألف والنون للمبالغة[١].

وفي لسان العرب: الربَّاني هو الموصوف بعلم الرب... وهو العالم المعلم الذي يغذو، بمعنى: يُطعم الناس بصغار العلم قبل كباره... وهو العالم الراسخ في العلم والدين[٢].

قال القرطبي في تفسيره: الربَّاني منسوب إِلى الربِّ، وهو الذي يربِّي الناسَ بصغار العلم قبل كباره، وهو العالم بدِين الرب الذي يعمل بعلمه؛ لأنه إذا لم يعمل بعلمه فليس بعالم[٣].

وفي القاموس المحيط: الربَّاني هو المتألِّه؛ العارف بالله عَزَّوَجَلَّ أو منسوب إِلى الرب[٤].

---

(١) النهاية في غريب الحديث (٢/ ١٨١ دار الكتب العلمية) باختصار.

(٢) لسان العرب (١/ ٤٠٣).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ١٢٢).

(٤) القاموس المحيط ص (٨٧).

من خلال التعريفات السابقة يتضح لنا أن من معاني الربَّانية اللغوية هي الانتساب إِلى الله عَزَّوَجَلَّ... فكما أن الشخص الذي ينتسب إِلى بلدته أو قبيلته فيقال له: مصري، شامي... كذلك فإِن هناك طائفة من الناس يُطلق عليهم لقب «**ربَّانيون**» لتحقيقهم شروط الانتساب إِلى الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى..

هذا من الناحية اللغوية... أما من الناحية الشرعية فالرباني -كما يقول أبو حامد الغزالي- هو القريب من الرب، وأكثر الناس ربانية هم أقربهم من الله عَزَّوَجَلَّ..

الإنسان بين السماء والأرض:

خلق الله عَزَّوَجَلَّ الإِنسان وأسجد له الملائكة، وكرمه على سائر مخلوقاته بما أودعه في عقله من ملكات يُمْكِنُه من خلالها أن يصل إِلى معرفته سبحانه لدرجة لم يصل إِليها مخلوق من قبل... نفخ فيه من روحه وخلق له الأرض وأسكنه فيها وهيأه للمعيشة عليها، فجعل جسده مكونًا من عناصرها: ﴿**إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾**﴾ [ص: ٧١، ٧٢].

فالواحد منا مكون من جسد وروح.. جسد يجذبه بمتطلباته إِلى الأرض، وروح تسمو به إِلى السماء.. وكلما اقترب من الأرض ابتعد عن السماء، وضعفت صلته بالله، وقد يصل إِلى المرحلة التي تنقطع فيها صلته تمامًا بربه ويصبح أرضيًا خالصًا وهذا ما نجده في قوله تعالى: ﴿**وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ**﴾ [الأعراف: ١٧٦].

وفي المقابل: كلما تخلص الإِنسان من جواذب الأرض بروحه وقلبه ارتفع إِلى السماء وازدادت شيئًا فشيئًا صلته بخالقه، حتى يصل إِلى درجة الانتساب إِليه

فيصبح عبدًا ربانيًا.

... إِنه انتساب واحد إِما إِلى الأرض وإِما إِلى السماء.. نعم قد يكون في القلب انجذاب نحو الأرض وما فيها من شهوات، وفيه كذلك اتصال بالله، ولكن يظل هذا الاتصال في إِطار ضيق محدود، ولا يصبح صاحبه موصولًا بالله، منتسبًا إِليه إِلا إِذا تحرر قلبه من أسر الهوى وحب الدنيا.

كيف يؤسر القلب؟

جعل الله عَزَّوَجَلَّ القلب محلًّا لعبوديته، ففيه تجتمع المشاعر داخل الإنسان من حب وكره، وخوف ورجاء وفرح وحزن، ورغبة ورهبة، وفزع وسكينة.. وغير ذلك من العواطف.

ولقد جعله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ مَلِكًا على الجسم كله، فما من حركة إِرادية يقوم بها أي عضو إِلا وتأتي استجابة لأوامره.. فهو محل الإرادة واتخاذ القرار، وما على الجميع إِلا التنفيذ.

يقول رسول الله ﷺ: «**أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**»[1].

ومن جنود هذا القلب: العقل، ومن أهم وظائفه أنه محل العلم والتفكير، فيه تُدرك العواقب، وتُلجم العواطف.

أما النفس فهي المعنى الجامع للشهوات والأهواء الغريزية.. تريد دائمًا أن تجمح بالإِنسان وتدفعه للاستجابة لطلباتها.

---

(١) رواه البخاري (١/ ٢٠ برقم:٥٢)، ومسلم (٣/ ١٢١٩ برقم: ١٥٩٩).

تُحب أن تأخذ حظها من كل فعل يفعله العبد؛ لذلك فهي تعمل على إِخضاع القلب وتجنيد مشاعره لخدمة حظوظها، ويقف الشيطان من خلفها مستغلًّا جهلها وشحها فيزين لها الأفعال التي تستوفي حظوظها الظاهرة والخفية.

ولقد خلق الله النفس بهذه الصفات ليختبر مدى صدق عبوديتنا له.. فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يريد منا أن ننصره على نفوسنا وأن نخضع له مشاعرنا، فنطيع أوامره وإن خالفت هوانا، أما النفس فتريد عكس ذلك. فالعبد -كما يقول عبد القادر الجيلاني- ملقى بين الله وبين نفسه، إن نصر نفسه كان عبدًا لها، وإِن نصر الله كان عبدًا له.. فالنفس هي ميدان المعركة ولولا وجودها لكنا كالملائكة.

وما من قرار يصدر من القلب إِلى الجوارح إِلا ويترجم انتصار حب الله والإِيمان به على حب النفس وهواها، أو يترجم عكس ذلك، فالصراع بين داعي الإِيمان وداعي الهوى لا بد أن يُحسم لصالح أحدهما لحظة اتخاذ القرار، فإِن انتصر الإيمان انقادت الجوارح لأوامره، سواء أكان ذلك فعل طاعات أم ترك منكرات... أما إِذا ما انتصرت النفس في هذه المعركة كان القرار قرارها، فتأمر الجوارح بفعل ما يُرضي رغباتها ومشتهياتها ويخالف أمر الله ورضاه.

يقول رسول الله ﷺ: «**لَا يَزْنِي الْعَبْدُ حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ حِينَ يَشْرَبُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ**»[1].

معنى الفطرة الحنيفية:

خلق الله قلب الإنسان -أي إنسان- وفيه ميل طبيعي للاستجابة لداعي

(١) رواه البخاري (٨/ ١٦٤ برقم: ٦٨٠٩)، ومسلم (١/ ٧٦ برقم:٥٧).

الإيمان... وهذا الميل يسمي بالفطرة الحنيفية.

قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الروم: ٣٠].

هذه الفطرة النقية التي يبدأ بها جميع البشر حياتهم في الدنيا تنتكس شيئًا فشيئًا، وتتجه حيث أهواء الناس كما قال رسول الله ﷺ: «**مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ...**»[١].

وعندما يترك العبد قلبه بدون توجيه منذ البداية فما أيسر أن تتجه مشاعره حيثما تريد النفس، فالنفس محبوبة وما تدعو إِليه محبوب، وشيئًا فشيئًا يعتاد القلب الاستجابة لداعي الهوى، ويضعف بالتدريج تأثير داعي الإِيمان، ويستمر ذلك الأمر إِلى أن يُحاط بالقلب، فتُسلب إرادته، ويصبح أسيرًا لنفسه مطيعًا لها ولهواها.

وعندما يمن الله عَزَّوَجَلَّ على بعض عباده بدخول الإِيمان في قلوبهم فليس هذا معناه التحرر الكامل للإِرادة، وخروج القلب من أسر هواه، بل معناه بداية عودة الحياة إِلى القلب من جديد؛ ليبدأ الصراع بين داعي الإِيمان وداعي الهوى حول كل قرار يتخذه القلب.

فإِن داوم العبد على إِمداد قلبه بما يقوي إِيمانه، واستمر على جهاد نفسه فسيتم -بإذن الله- تخلصه من الأسر شيئًا فشيئًا، إِلى أن يكتمل تحرره فيولد من جديد قلبًا حيًّا نابضًا موصولًا بالله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) رواه البخاري (٢/ ٩٤ برقم: ١٣٥٨)، ومسلم (٤/ ٢٠٤٧ برقم: ٢٦٥٨).

قال رسول الله ﷺ: «**تُعْرَضُ الفِتَنُ عَلَى القُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَها، نُكِتَ فيه نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وأَيُّ قَلْبٍ أنْكَرَها، نُكِتَ فيه نُكْتَةٌ بَيْضاءُ، حتّى تَصِيرَ عَلَى أبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دامَتِ السَّمَواتُ والأرْضُ، والآخَرُ أسْوَدُ مُرْبَادًّا كالْكُوزِ، مُجَخِّيًا لا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، ولا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إلّا ما أُشْرِبَ مِنْ هَواهُ**»[1].

هذا القلب الحي المحرر من سلطان الهوى قد تعتريه غفلات كطبيعة البشر، فتستغل نفسه والشيطان تلك الغفلات لصده عن سبيل الله، لكنه سرعان ما يفيق منها ويتدارك ما فاته، بل قد يعود أفضل مما كان: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١**﴾ [الأعراف: ٢٠١].

الولادة الثانية:

إن البداية الحقيقية للربانية تبدأ بولادة القلب الحي المتحرر من أسر طبعه وهواه.. فإذا ما تمت تلك الولادة بدأ القلب رحلته الحقيقية سيرًا إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

يقول ابن القيم:

فللروح في هذا العالم نشأتان؛ إحداهما: النشأة الطبيعية المشتركة. والثانية: نشأة قلبية روحانية، يولد بها قلبه، وينفصل عن مشيمة طبعه، كما وُلد بدنه وانفصل

---

(١) رواه مسلم (١/ ١٢٨ برقم: ١٤٤)، وجاء في لسان العرب (١٤/ ١٣٣): «مُجَخِّيًا» أي مائلًا؛ والمجخي: المائل عن الاستقامة والاعتدال، فشبه القلب الذي لا يعي خيرًا بالكوز المائل الذي لا يثبت فيه شيء؛ لأن الكوز إذا مال انصب ما فيه.

عن مشيمة البطن. ومن لم يصدق بهذا فليضرب عن هذا صفحًا، وليشتغل بغيره.

وَمِمَّا يُذْكَرُ عَنِ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: «يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ، لَنْ تَلِجُوا مَلَكُوتَ السَّمَاءِ حَتَّى تُولَدُوا مَرَّتَيْنِ».

ويستطرد ابن القيم قائلًا: وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ اللَّهُ- يقول: هي ولادة الأرواح والقلوب من الأبدان، وخروجها من عالم الطبيعة، كما ولدت الأبدان من البدن وخرجت منه، والولادة الأخرى هي الولادة المعروفة. والله أعلم(١).

لا بديل -إذن- عن الولادة الثانية لمن أراد الحياة الحقيقية لقلبه: ﴿**أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا**﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وليس معنى ولادة القلوب من الأبدان: ترك الدنيا وعدم التعامل مع ما فيها، بل المقصد هو عدم تعلق القلب بها، كما كان حال رسول الله ﷺ وهو أكمل الخلق وخيرُ مَنْ عبد الله عَزَّ وَجَلَّ، فلم يمنعه حاله ومقامه مع ربه أن يتعامل بصفته البشرية مع نفسه ومع الناس.

يقول ابن الجوزي: ومن تأمل حالة رسول الله ﷺ، رأى كاملًا من الخلق، يُعطي كل ذي حق حقه، فتارة يمزح، وتارة يضحك، ويداعب الأطفال، ويسمع الشعر، ويتكلم بالمعاريض، ويحسن معاشرة النساء، ويأكل ما قدر عليه وأتيح له،

---

(١) مدارج السالكين (١/ ١٤٦).

وإِن كان لذيذًا كالعسل، ويُستعذب له الماء، ويُفرش له الظل ولم ينكر ذلك[١].

ويؤكد على هذا المعنى ابن رجب فيقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقد كان حال النبي ﷺ عند الذكر يتغير ثم يرجع بعد انقضائه إِلى مخالطة الناس والقيام بحقوقهم. ففي مسند البزار ومعجم الطبراني عن جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «كان رسول الله ﷺ إِذا نزل عليه الوحي قلت: نَذِيرُ قَوْمٍ، فَإِذَا سُرِّيَ عَنْهُ، فَأَكْثَرُ النَّاسِ ضَحِكًا، وَأَحْسَنُهُمْ خُلُقًا»[٢]. وسئلت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: كيف كان الرسول ﷺ إذا خلا بنسائه؟ قالت: كان كالرجل من رجالكم إِلا أنه: « كان أكرم الناس، وأحسن الناس خلقًا، كان ضحاكًا بسامًا»[٣].

وكذلك كان حال الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، فالمتأمل لسيرتهم يجد أنهم لم يتركوا الدنيا، ولم ينقطعوا للعبادة ويعتزلوا الناس، بل كانوا يمارسون حياتهم بصورة طبيعية: يأكلون من الطيبات، يتسامرون ويضحكون ويلعبون مع أزواجهم وأولادهم.. عاشروا الناس بأبدانهم وعاملوا الله بقلوبهم.

أخرج أبو نعيم عن قتادة قال: سُئل بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: هل كان أصحاب النبي ﷺ يضحكون؟ قال: نعم والإِيمان في قلوبهم أعظم من الجبال[٤].

لقد فاقوا مَن بعدهم بقوة صلتهم بربهم وقربهم منه، وشدة تعلقهم بالآخرة، ورغبتهم فيها، وإِعراضهم عن الدنيا وإِن كانت في أيديهم.

---

(١) صيد الخاطر (ص ٣٠٦).

(٢) الطبراني في مكارم الاخلاق (برقم: ٢٢).

(٣) الطبراني في مكارم الأخلاق (برقم: ٦٤).

(٤) حلية الأولياء (١/ ٣١١).

تأمل قول عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو يحدث الناس عن الصحابة: أنتم أكثر صيامًا وأكثر صلاة، وأكثر اجتهادًا من أصحاب رسول الله ﷺ وهم كانوا خيرًا منكم! قالوا: لِـمَ يا أبا عبد الرحمن؟ قال: هم كانوا أزهد في الدنيا وأرغب في الآخرة[١].

علاقة الإِيمان بالربَّانية:

يقول ابن القيم:

تنقسم القلوب إِلى ثلاثة أقسام: قلب حي موصول بالله، وقلب ميت لا حياة فيه، وقلب ثالث به حياة وبه عِلَّة:

فله مادتان يمده هذا مرة، وهذا أخرى، وهو لِما غلبَ عليه منهما، ففيه من محبة الله والإِيمان به والإخلاص له، والتوكل عليه ما هو مادة حياته، وفيه من محبة الشهوات وإِيثارها والحرص على تحصيلها، والحسد والكبر والعجب، وحب العلو في الأرض بالرياسة ما هو مادة هلاكه وعطبه، وهو ممتحن من داعيين: داعٍ يدعوه إِلى الله ورسوله والدار الآخرة، وداعٍ يدعوه إِلى العاجلة وهو إِنما يجيب أقربهما منه بابًا، وأدناهما إِليه جوارًا.

ويستطرد قائلًا: فكما يراد من الأعضاء أن تكون سليمة كذلك القلب ينبغي أن يكون صحيحًا سليمًا يتأتى منه ما هيئ له وخُلق لأجله، وعدم سلامته إما ليبسه أو قساوته كاليد الشلاء واللسان الأخرس، وإِما بمرض وآفة فيه تمنعه من كمال هذه

(١) حلية الأولياء (١/ ١٣٦).

الأفعال ووقوعها على السداد[١].

معنى هذا أن وجود الإِيمان في القلب لا يعني بالضرورة أن يكون صاحبه ربانيًّا إلا إِذا حرر قلبه من أسر هواه وخلّصه من أمراضه وتمت ولادته؛ ومن ثم بدأ في سيره إِلى الله.

فالربانية صفة خاصة لبعض أهل الإِيمان يتصفون بها عندما يتحققون بشروطها.

والمتأمل للخطاب القرآني يجده يطالب المؤمنين بالعمل على إِحياء قلوبهم: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤]، ويستبطئ تأخر خشوعها لله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ [الحديد: ١٦].

وهذا يدل أن دخول الإِيمان في القلب لا بد أن يتبعه عمل دائب من صاحبه للتخلص من جواذب الأرض ليبدأ سيره الحقيقي إِلى الله فيقترب منه شيئًا فشيئًا حتى يصبح ربانيًّا.

(١) إِغاثة اللهفان (١/ ١١-١٥) باختصار.

الفصل الثانـي

هل نحـن ربَّانيـون؟

- بين الواجب والواقع.
- رجل لا قلب له.
- معنى حياة القلب.
- من صفات القلب الحي.

هل نحن ربَّانيون؟

بين الواجب والواقع:

من خلال التعريف السابق للربَّانية يتضح لنا أن الانتساب إِلى الله عَزَّوَجَلَّ وقوة الصلة به يحدده مقدار ابتعاد القلوب عن الأرض، وأن الأجساد التي تسير بجوار بعضها البعض يختلف وضعها عند الله بمقدار قُرب أو بُعد قلوبها عنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

فهناك قلوب ملتصقة بالأرض كما قال تعالى: ﴿**وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ**﴾ [الأعراف: ١٧٦]، وهناك صنف آخر تخلص من جواذب الأرض وارتفع بقلبه إِلى السماء، وبين هؤلاء وهؤلاء يوجد صنف ثالث في قلبه إِيمان وهوى: إِيمان يدفعه لفعل الطاعات وترك كثير من المحرمات، وهوى يجره إِلى اللهث وراء الدنيا والفرح بإقبالها والحزن على إِدبارها.

وهذا هو حال كثير منا: فترانا نغفل كثيرًا عن الله ولا نستشعر برقابته علينا.. نعلم أننا سنموت، وسنُبعث وسنحاسب لكننا لا نستعد لذلك الاستعداد المطلوب. نتأثر ببعض المواعظ ولا نستطيع ترجمة هذا التأثر إِلى واقع عملي، فالذهن مشغول بالوظيفة والمال والأولاد والمستقبل.

ولقد ضاق أحد الشباب ذرعًا بهذا الانفصال بين الواجب والواقع، وبين العقل والقلب، والعلم والعمل، فأَرسل رسالة إِلى أحد المصلحين يسأله العلاج بعد أن وصف له حال قلبه... لقد أرسل رسالته منذ عشرات السنين وكأنه يصف فيها حال

قلبي وقلوب كثير ممن قرؤوا رسالته وشعروا بأنهم مثله كما قال واصفًا نفسه:

رجل لا قلب له

يقول فيها:

«سيدي وأستاذي...

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

وبعد:

هل أتاك نبأ الرجل الذي لا قلب له؟ عفوًا، إذا كان القلب هذه الكتلة العضلية من اللحم الأحمر، التي تقبض الدم وتبسطه، فهو يملكه -بلا ريب- بدليل حياته، وأما إذا كانت هذه العاطفة الجياشة والإحساس الصقيل، والشعور الحي فأسفًا!!

هو يفطن إلى معالم الحسن الدقيقة، بالنظرة الخاطفة، كما يدرك مواطن القبح الخفية باللمحة العابرة.

وهو يقرأ أخلاق الرجل في وجهه، مصيبًا إلى حد بعيد، كما يشير إليه الرمز ويرمي الإيماء. وبالرغم من ذلك فهو لا قلب له! هو يلقى الصديق بعد غياب طويل، فيهز يده بقوة، بل يعانقه، ولكن قلبه جامد لا يختلج، وهو يهتف في الناس أن كونوا وكونوا ويدلل ويحتج، ولكنه قلب متصلب لا يهتز.

هو يتلقى الخبر السار فيبتسم، والنبأ المحزن فيقطب، ولكن سروره وحزنه آليان، وقلبه ساكن لا يضطرب.

هو يعلن للشخص حبه أو بغضه، ثم يلتفت إلى قلبه فيجده صامتًا لا يبين.

هو يقف للصلاة ويلم فيها شتاته، ويتلو القرآن ويحصر فيه انتباهه، ثم يصلي ويتلو بنبرات قالوا: إنها شجية خاشعة، ولكنه يتحسس قلبه، فيجده أصم، وإن كان يفقه.

هذا وصف حق يا سيدي لم أتزيد عليه، أو أتنقص فيه شيئًا، فهل تجد لديك القدرة على الاعتراف بأن هذا قلب كسائر القلوب؟؟

لقد أوتيت العقل، وسُلِبت القلب، فطالما أحسست بفكري يتأجج، ويعمل ويحيا، ويثبت وجوده، ولكن عبثًا حاولت أن أثبت هذا لقلبي...»[1].

نعم لقد شخَّصَت الرسالة حال الكثير منا وإن كنا لا نجرؤ على الكلام بمثل هذه الشجاعة، ولكنه الواقع الأليم الذي نحياه، ونريد أن نغيره.

فإن كان هذا هو حال قلوبنا، فما هي يا ترى صفات القلب الحي الموصول بالله عَزَّوَجَلَّ؟!

معنى حياة القلب:

إن حياة القلب تعنى تجاوبه مع ما يقوله اللسان بالخفقان والإحساس والشعور. ولقد جاء وصف القلب الحي في القرآن والسنة بجملة من الصفات.

من صفات القلب الحي:

(١) انشراح الصدر:

عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: تلا نبي الله ﷺ هذه الآية: ﴿**أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ**

(١) نظرات في التربية والسلوك. (ص ١٠٧، ١٠٨) وسنورد الرد على هذه الرسالة في الفصل الخامس – الطريق إلى الربانية.

﴿لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢] فقلنا: يا رسول الله، كيف انشراح صدره؟ قال: «**إِذَا دَخَلَ النُّورُ الْقَلْبَ انْشَرَحَ وَانْفَسَحَ**»، فقلنا: فما علامة ذلك يا رسول الله؟ قال: «**الْإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ، وَالتَّجَافِي عَنْ دَارِ الْغُرُورِ، وَالْاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نُزُولِهِ**»[١].

(٢) وجل القلب عند ذكر الله:

قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ**﴾ [الأنفال: ٢].

والوجل هو: الخوف والفزع، ويشعر الرباني بذلك عند ذكره لله.

قالت أم الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: إنما الوجل في قلب ابن آدم كاحتراق السعفة[٢].

(٣) خشوع القلب:

قال تعالى: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢**﴾

[المؤمنون: ١، ٢].

وقال تعالى: ﴿**إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ۝٩٠**﴾ [الأنبياء: ٩٠].

ويعرِّف ابن رجب الخشوع فيقول: وأصل الخشوع هو لين القلب ورقته وسكونه وخضوعه وانكساره وحرقته، فإذا خشع القلب تبعه خشوع جميع الجوارح والأعضاء لأنها تابعة له كما قال رسول الله ﷺ: «**أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا**

---

(١) الحديث رواه البيهقي في القضاء والقدر (برقم:٣٨٩) والزهد (برقم:٩٧٤). وله رواية عند ابن أبي شيبة والحاكم بلفظ قريب لكنه تلا: ﴿**فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ**﴾.

(٢) شعب الإيمان للبيهقي (٢/ ٣٨٢ برقم:١٠٩٨).

صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»[١]. فإذا خشع القلب خشع السمع والبصر والرأس والوجه وسائر الأعضاء وما ينشأ منها حتى الكلام؛ ولهذا كان النبي ﷺ يقول في ركوعه: «**خَشَعَ لَكَ سَمْعِي وَبَصَرِي وَمُخِّي وَعَظْمِي وَعَصَبِي**»[٢].

ورأى بعض السلف رجلًا يعبث بيده في صلاته فقال: لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه.

وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله تعالى: ﴿**ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ۝٢**﴾ [المؤمنون: ٢] قال: خائفون ساكنون.

وقد وصف الله تعالى في كتابه الأرض بالخشوع فقال: ﴿**وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ**﴾ [فصلت: ٣٩].

فاهتزازها وربوها -وهو ارتفاعها- مزيل لخشوعها، فدل ذلك على أن الخشوع الذي كانت عليه هو سكونها وانخفاضها.

ومتى تكلف الإنسان تعاطي الخشوع في جوارحه وأطرافه مع فراغ قلبه من الخشوع وخلوه منه كان ذلك خشوع نفاق، وهو الذي كان السلف يستعيذون منه كما قال بعضهم: استعيذوا بالله من خشوع النفاق. قالوا: وما خشوع النفاق؟ قال: أن يُرَى الجسد خاشعًا والقلب ليس بخاشع.

فمن أظهر للناس خشوعًا فوق ما في قلبه فإنما هو نفاق على نفاق. وأصل

---

(١) رواه البخاري (١/ ٢٠ برقم:٥٢) ومسلم (٣/ ١٢١٩ برقم: ١٥٩٩).

(٢) رواه مسلم (١/ ٥٣٤ برقم: ٧٧١).

الخشوع الحاصل في القلب، إنما هو من معرفة الله تعالى، ومعرفة عظمته وجلاله وكماله، فمن كان بالله أعرف كان له أخشع. ا.هـ[١].

٤ سرعة التأثر بالموعظة:

وهذا التأثر يبدأ في القلب فيزداد لينه وخشوعه ثم يفيض على الجوارح فتقشعر الجلود وتدمع العيون، كما قال تعالى:

﴿ **فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ (٢٢) ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ** ﴾ [الزمر: ٢٢، ٢٣].

وهذا يكون مع المواعظ بصفة عامة، أما مع القرآن فالتأثر يكون أشد كما قال تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا** ﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩].

٥ تذوق حلاوة الإيمان:

قال رسول الله ﷺ: «**ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ: مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ رَسُولًا**»[٢]. فأخبر ﷺ أن للإيمان طعمًا، وأن القلب يذوقه كما يذوق الفم طعم الطعام والشراب[٣].

---

(١) الذل والانكسار لابن رجب من (ص ٣٢ - ٣٩) باختصار.

(٢) رواه مسلم (١/ ٦٢ برقم: ٣٤).

(٣) تهذيب مدارج السالكين (ص ٥٣٩).

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلّٰهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ**»[1].

يقول ابن القيم:

فللإِيمان طعم وحلاوة يتعلق بهما ذوق ووجد «كما جاء في الحديثين السابقين» ولا تزول الشُّبه والشكوك عن القلب إلا إِذا وصل العبد إِلى هذه الحال فباشر الإِيمان قلبه حقيقة المباشرة فيذوق طعمه ويجد حلاوته.

وهذا الذوق هو الذي استدل به هرقل على صحة النبوة؛ حيث قال لأبي سفيان: فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه؟ فقال: لا. قال: وكذلك الإِيمان إِذا خالطت حلاوته بشاشة القلوب.

والمقصود: أن ذوق حلاوة الإِيمان والإِحسان، أمر يجده القلب تكون نسبته إِليه كنسبة ذوق حلاوة الطعام إِلى الفم[2].

إن القلب الموصول بالله هو الذي يذوق طعم الإِيمان ويجد حلاوته... وكلما نقصت حياته قل تذوقه لهذه الحلاوة.

ويقول الإمام ابن حجر في شرحه لهذا الحديث: فيه تلميح إِلى قصة المريض والصحيح؛ لأن المريض الصفراوي يجد طعم العسل مرًّا، والصحيح يذوق

---

(١) رواه البخاري (١/ ١٢ برقم:١٦)، ومسلم (١/ ٦٦ برقم: ٤٣).

(٢) تهذيب مدارج السالكين (ص ٥٤٠).

حلاوته على ما هي عليه، وكلما نقصت الصحة شيئًا ما نقص ذوقه بقدر ذلك...[(١)].

⑥ **الشعور بالقرب الحقيقي من الله** عَزَّوَجَلَّ:

فيشعر العبد أن الله عَزَّوَجَلَّ أقرب إِليه من زوجته وولده ووالديه وأصدقائه المقربين، وهذا الشعور لا تنال العبارة حقيقته، ويتجلى بوضوح في حب مناجاته سبحانه والتلذذ بذكره وحب الخلوة به. كما قال نبي الله موسى: ﴿**وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ** ﴿٨٤﴾﴾ [طه: ٨٤].

وكلما اقترب العبد من ربه قويت معرفته به فازدادت أوقات جمعيته معه.

قال نبي الله عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ: «يا معشر الحواريين، كلموا الله كثيرًا وكلموا الناس قليلًا. قالوا: وكيف نكلم الله؟ قال: اخلوا بمناجاته.. اخلوا بدعائه»[(٢)].

ويؤكد على هذا المعنى الحسن البصري فيقول: إن أحباء الله هم الذين ورثوا طيب الحياة وذاقوا نعيمها بما وصلوا إليه من مناجاة حبيبهم، وبما وجدوا من حلاوة في قلوبهم. لا سيما إِذا خطر على بالهم ذكر مشافهته وكشف ستور الحجب عنه في المقام الأمين والسرور، وأراهم جلاله وأسمعهم لذة كلامه، ورد عليهم جواب ما ناجوه به أيام حياتهم[(٣)].

⑦ **دوام الفرار إِلى الله:**

فالرباني الموصول بالله: دائم الفرار إليه –سبحانه– كلما أصابه مكروه أو ألمت

---

(١) فتح الباري (١/ ٦٠).

(٢) مختصر قيام الليل (ص:٦٢) وحلية الأولياء (٦/ ٩٤) واللفظ له.

(٣) شرح حديث لبيك اللهم لبيك لابن رجب (ص ٨٩).

به مشكلة، أو قصر في أمر من الأمور، أو وقع في محظور.. فتجده سريع الأوبة والإِنابة والفرار إلى وليّه ومولاه: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾ [الذاريات: ٥٠].

فليس معنى أن العبد أصبح ربانيًا: انتفاء صفة البشرية عنه، بل قد تحدث منه هنات، وأخطاء، ولكن الفارق بينه وبين غيره أنه سريع العودة والفرار إِلى مولاه كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ ﴾ [آل عمران: ١٣٥] وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

وفي قصة داود عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ والخصمين دلالة واضحة على أهمية سرعة العودة والإِنابة إِلى الله إِذا ما شعر العبد أنه قد جانبه الصواب.

قال تعالى: ﴿ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّۤ رَاكِعٗاۤ وَأَنَابَ ۩ فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴾ [ص: ٢٤- ٢٥].

فالرباني في فرار دائم إِلى الله: يشكو إِليه ظلم الظالمين، وكيد الكائدين.. يستغفره ويسترضيه ويلح عليه في الدعاء ألا يغضب عليه أو يتركه لنفسه.. يناجيه فيقول له: أعوذ برضاك من سخطك، وعفوك من عقوبتك، وبك منك، لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك.. يبث شكواه كما قال يعقوب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لبنيه: ﴿ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [يوسف: ٨٦].

ومن أهم صور الفرار: الصلاة والدعاء.. فكلما نزلت بالرباني نازلة أو أصابته مصيبة هرع إِلى مولاه بالصلاة والدعاء ليقوي اتصالُه به، ويزداد شعوره بأنه في

معيته وولايته وفي نطاق حمايته، فيخرج من الصلاة بقلب آخر ملئ بالطمأنينة والسكينة.. ولهذا كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة يناجي فيها مولاه ويبث شكواه.

انكسفت الشمس يومًا على عهده ﷺ، فقام عليه الصلاة والسلام يصلي وأطال الصلاة، ثم جعل يبكي في سجوده ويقول: «**رَبِّ، أَلَمْ تَعِدْنِي أَنْ لَا تُعَذِّبُهُمْ وَأَنَا فِيهِمْ؟ رَبِّ، أَلَمَ تَعِدْنِي أَنْ لَا تُعَذِّبُهُمْ وَنَحْنُ نَسْتَغْفِرُكَ؟**»، فلما صلى ركعتين انجلت الشمس، فقام فحمد الله وأثنى عليه، وقال: «**إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللهِ فَإِذَا انْكَسَفَا فَافْزَعُوا إِلَى ذِكْرِ اللهِ**»[1].

فالفرار إلى الله ودوام الإنابة إليه من أهم سمات الربانيين وقت الشدائد: ﴿**ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾**﴾ [آل عمران:١٧٣، ١٧٤].

⑧ انكسار القلب:

وهو من أعلى درجات الخشوع فيجد صاحبه -كما يقول ابن رجب- في قلبه كسرة خاصة لله عز وجل. وعلى قدر الكسر يكون الجبر.. ولا جبر لانكسار العبد أعظم من القرب والإجابة[2].

---

(١) أصل الحديث في الصحيحين عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.. ورواه بهذا اللفظ: أبو داود (١/ ٣١٠ برقم: ١١٩٤) وابن خزيمة (٢/ ٣٢٢ برقم: ١٣٩٢) واللفظ له وابن حبان (٧/ ٧٩ برقم:٢٨٣٨).

(٢) الذل والانكسار لابن رجب (ص ٣٩).

روى البيهقي في الزهد عن عبد الكريم بن رشيد أن داود عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «**أَيْ رَبِّ أَيْنَ أَلْقَاكَ؟ قَالَ: تَلْقَانِي عِنْدَ الْمُنْكَسِرَةِ قُلُوبُهُمْ**»[١].

وروى الإمام أحمد في الزهد عن عمران القصير قال: قال موسى بن عمران عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**أَيْ رَبِّ أَيْنَ أَبْغِيكَ؟ قَالَ: ابْغِنِي عِنْدَ الْمُنْكَسِرَةِ قُلُوبُهُمْ، إِنِّي أَدْنُو مِنْهُمْ كُلَّ يَوْمٍ بَاعًا، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَانْهَدَمُوا**»[٢].

فهذه بعض صفات القلب الحي الموصول بالله عَزَّوَجَلَّ، والتي لا يشعر بها إلا صاحبه، ومما لا شك فيه أن لصاحب هذا القلب علامات ومظاهر تبدو في سلوكه وتعاملاته.. ولقد سأل الصحابة -رضوان الله عليهم- رسول الله ﷺ عن هذه العلامات... فقال ﷺ: «**التَّجَافِي عَنْ دَارِ الْغُرُورِ، وَالْإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ، وَالْاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نُزُولِهِ**»[٣].

فمن مظاهر التجافي عن دار الغرور:

احتقار الدنيا وعدم التلهف على تحصيلها، وعدم الحزن على فواتها أو نقصانها، وترك التنافس من أجلها، وعدم حسد الآخرين عليها، والرضا بالقليل منها، وتحين أي فرصة لترك الانشغال بها، وقلة التفكير في الرزق والمستقبل والأولاد.

ومن مظاهر الإنابة إلى دار الخلود:

المسارعة في الخيرات، وتعظيم الأمر والنهي وشدة الورع والبعد عن

---

(١) الزهد للبيهقي (برقم:٣٦٧).

(٢) الزهد للإمام أحمد (برقم: ٣٩١).

(٣) الحديث رواه البيهقي في القضاء والقدر (برقم:٣٨٩) والزهد (برقم:٩٧٤). وله رواية عند ابن أبي شيبة والحاكم بلفظ قريب لكنه تلا: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾.

الشبهات، ومراجعة كل ما يفعله العبد والتأكد من مطابقته للشرع، وتقديم مصالح الدين على جميع المصالح الدنيوية عند تعارضهما.

أما مظاهر الاستعداد للموت قبل نزوله فمنها:

شدة محاسبة النفس على ما مضى من ذنوب أو تقصير، والمسارعة إلى التوبة الصادقة التي تقطع القلوب وتذرف الدموع، والتحلل من المظالم، ورد الحقوق.

فهذه المظاهر وغيرها مع كثرتها التي قد تشعر البعض بصعوبة تحققها إلا أنها تشترك جميعًا في كونها تنطلق من قلب حي صحيح ذي إرادة حرة، مفعم بالإيمان كما قال رسول الله ﷺ: «**أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**»[١].

---

(١) رواه البخاري (١/ ٢٠ برقم:٥٢)، ومسلم (٣/ ١٢١٩ برقم:١٥٩٩).

الفصل الثالث

حاجتنا إلى الربانية

- تحقيق السعادة.
- الدخول في معية الله وحمايته.
- تأمين مستقبل الأولاد.
- الانسجام مع الفطرة.
- عودة العلم المفقود.
- التمكين لدين الله وتلقي نصره.
- القرب من الله في الآخرة.

حاجتنا إلى الربانية

للربانية ثمار عاجلة يُحصلها صاحبها في الدنيا قبل الآخرة، ولا يبالغ من يقول بأن حاجتنا إِليها ينبغي أن تكون أشد من حاجتنا إِلى الطعام والشراب.. وهذه بعض الأسباب التي تؤكد على هذا المعنى.

أولًا: تحقيق السعادة:

فالربانية هي الوسيلة الوحيدة لتحصيل السعادة بمعناها الحقيقي، ألا وهو سكينة النفس وراحة البال والرضا والطمأنينة.

ولقد ظن كثير من الناس أن السعادة تأتي من خارج ذواتهم، فسعوا إِلى جمع المال وبناء الدور والتمتع بالشهوات.. فماذا جنوا؟!

تمتعوا لحظات بهذه الشهوات ثم عادوا إِلى أنفسهم ليجدوا ضيق الصدر والهم والغم يلازمهم، فامتلأت بهم عيادات الطب النفسي، وازدادت بينهم حالات الانتحار والإِدمان وفعل كل ما هو شاذ.

لقد أخطأ هؤلاء الطريق عندما توهموا أن السعادة تأتى للقلب من خارجه، فلو صح هذا الافتراض لكان لزامًا على كل من يريد السعادة أن يوفر مصدرًا خارجيًّا يجلبها إِليه بصورة مستمرة.

«طالعت كثيرًا وجربت كثيرًا، وخالطت أوساطًا كثيرة، وشهدت حوادث عدة، فخرجت من هذه السياحة القصيرة المدى، الطويلة المراحل بعقيدة ثابتة لا تتزلزل،

هي أن السعادة التي ينشدها الناس جميعًا إنما تفيض عليهم من نفوسهم وقلوبهم، ولا تأتيهم من خارج هذه القلوب أبدًا»[١]، فالقلب الحي الموصول بالله هو منبع السعادة.

قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل: ٩٧].

فالضنك والهم وضيق الصدر لا يعرف طريقه لهذا القلب أبدًا.. يقول تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه: ١٢٣، ١٢٤].

ولقد عبر الصالحون عن هذا الأمر، فهذا شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري أنَّى رحت فهي معي لا تفارقني، إنّ حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة[٢].

ويقول عنه تلميذه ابن القيم:

وعلم الله ما رأيت أحدًا أطيب عيشًا منه قط، مع ما كان فيه من ضيق العيش، وخلاف الرفاهية والنعيم، بل ضدها، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشًا، وأشرحهم صدرًا، وأقواهم قلبًا وأسرهم نفسًا، تلوح نضرة النعيم على وجهه[٣].

---

(١) مجموعة الرسائل (ص ١٦٨).

(٢) الوابل الصيب (ص ٩٦، ٩٧).

(٣) المصدر السابق.

وأكل إِبراهيم بن أدهم مع أصحابه كسرًا يابسة، ثم قام إِلى نهر فشرب منه بكفه، ثم حمد الله، وقال: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من النعيم والسرور لجالدونا عليه بالسيوف أيام الحياة على ما نحن فيه من لذيذ العيش وقلة التعب. فقال أصحابه: يا أبا إِسحاق، طلب القوم الراحة والنعيم فأخطؤوا الطريق المستقيم:

أهل المحبة قوم شأنهم عجب   سرورهم أبد وعيشهم طرب
العيش عيشهم والملك ملكهم   ما الناس إِلا بانوا أو اقتربوا[1]

ثانيًا: الدخول في معية الله وحمايته:

فلقد تكفل الله –عَزَّوَجَلَّ– لكل من انتسب إِليه وصار من أوليائه بحمايته وكفايته ونصرته، **قال تعالى:** ﴿ **إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا** ﴿٦٥﴾ ﴾ [الإِسراء: ٦٥]. **وقال:** ﴿ **أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ** ﴾ [الزمر: ٣٦].

فأولياؤه لا يخافون إِذا ما خاف الناس ولا يحزنون إِذا ما حزنوا.. لماذا؟

لأنهم في حماية الملك: ﴿ **أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴿٦٢﴾ ﴾ [يونس: ٦٢].

أما غيرهم فيا حسرتهم وهم يشعرون بأنهم كالأيتام في هذا الكون.. ليس لهم صلة بمالك الملك، ومدبر الأمر.. فمن ينصرهم من بعد الله؟!

إِن الدخول في حِمى الملك ومعيته، والاستمتاع بمقتضيات تلك الحماية من

---

(١) شرح حديث: لبيك اللهم لبيك (ص ٦١،٦٢).

سكينة وطمأنينة وراحة بال، وعدم خوف أو حزن من ماضٍ أو مستقبل لمن أهم الأسباب التي تؤكد حاجتنا إِلى الربانية.

وإِليك بعض النماذج التي تؤكد هذه الحقيقة:

■ لما جيء بإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ فخلعوا ثيابه، وشدوا قماطه[١]، ووضع في المنجنيق، بكت السماوات والأرض والجبال والشمس والقمر والعرش والكرسي والسحاب والريح والملائكة، كل يقولون: يا رب إبراهيم عبدك يحرق بالنار، فائذن لنا في نصرته، فقالت النار وبكت: يا رب سخرتني لبني آدم، وعبدك يحرق بي، فأوحى الله عَزَّوَجَلَّ إليهم: «**إِنَّ عَبْدِي إِيَّايَ عَبَدَ، وَفِي جَنْبِي أُوذِي، إِنْ دَعَانِي أَجَبْتَهُ، وَإِنِ اسْتَنْصَرَكُمْ فَانْصُرُوهُ**».

فلما رمي استقبله جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ بين المنجنيق والنار فقال: السلام عليك يا إبراهيم أنا جبريل، ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا! حاجتي إلى الله ربي. فلما قذف في النار كان سبقه إسرافيل فسلط النار على قماطه، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿**يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ** ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء: ٦٩][٢].

■ وعندما اقترب فرعون وجنوده من موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وأتباعه في البحر: ﴿**قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ** ﴿٦١﴾ **قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ** ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء: ٦١، ٦٢].

■ والغلام صاحب قصة أصحاب الأخدود لجأ إِلى الله وطلب منه أن يكفيه شر جنود الملك عندما هموا بقتله مرتين.. فما الذي حدث؟! عاد الغلام بمفرده

---

(١) القماط: الحبل ونحوه يشد به رباطه.

(٢) حلية الأولياء (١/ ٢٠).

سالمًا ومات الجنود؛ بعضهم بعاصفة في البحر والبعض الآخر بريح شديدة فوق الجبل.

■ وهذا رسول الله ﷺ يُطمئن أبا بكر وهما في غار ثور عندما وصل المشركون إليه بأن الله لن يتركهم: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة: ٤٠].

■ و«سفينة» مولى رسول الله ﷺ عندما ركب البحر، فانكسر به وبمن معه المركب، فألقاه البحر إلى الساحل، فصادف أسدًا فقال: «يا أبا الحارث، أنا مولى رسول الله ﷺ فطأطأ رأسه، وأقبل إلي فدفعني بمنكبه حتى أخرجني من الأجمة، ووضعني على الطريق وهمهم فظننت أنه يودعني فكان ذلك آخر عهدي به»[١].

يقول ابن رجب: فمن قام بحقوق الله عليه فإن الله يتكفل بجميع مصالحه في الدنيا والآخرة، ومن أراد أن يتولى الله حفظه ورعايته في أموره كلها فليرعَ حقوق الله عليه، ومن أراد ألا يصيبه شيء مما يكره فلا يأت شيئًا مما يكرهه الله منه[٢].

ثالثًا: تأمين مستقبل الأولاد:

غالبية الناس يكدون ويتعبون ويضحون بالكثير من راحتهم من أجل أولادهم،

---

(١) خبر سفينة رضي الله عنه جاء ذكره في جامع معمر بن راشد (١١/ ٢٨١ برقم: ٢٠٥٤٤) وفتوح الشام للواقدي (١/ ٢٧٨) ورواه الحاكم في المستدرك (٣/ ٧٠٢، ٢/ ٦٧٥ برقم: ٤٢٣٥، ٦٥٥٠).

(٢) نور الاقتباس لابن رجب (ص ١٤١).

ولا يكتفون بتوفير احتياجاتهم المعيشية فقط، بل يعملون على تأمين مستقبلهم أيضًا، ظانين أن أفضل وسيلة لذلك هي جمع أكبر قدر من المال، وبناء الدور وشراء الأراضي، مع أن الواقع المشاهد لا يؤكد هذا بل غالبًا ما ينفيه.. فكثيرًا ما كان المال الذي تركه الأبوان لأبنائهما سببًا في انحرافهم وفقرهم.

فما الحل إِذن وحب الأولاد والخوف عليهم شيء فطري؟

يقول تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤)﴾ [الملك: ١٤].

فالله عَزَّوَجَلَّ هو الذي خلقنا من العدم وأعطانا ما أعطانا من نعم لا تُعَد ولا تحصى، وهو سبحانه الذي أخبرنا في كتابه وعلى لسان رسوله بأن تأمين مستقبل الأولاد الحقيقي في الدنيا والآخرة لا يكون إِلا من خلال طريق واحد.. ألا وهو طريق الصلاح والتقوى وحسن الصلة به سبحانه: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٩)﴾ [النساء: ٩].

وفي قصة الخضر وموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أبلغ مثال لذلك.. لقد قاما -وهما من هما- ببناء جدار متهالك في القرية التي أبت أن تُضيّفهما وكان تعليل الخضر عندما اعترض موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ على هذا الفعل: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (٨٢)﴾ [الكهف: ٨٢]. إِنه قانون إِلهي بولايته سبحانه للصالحين: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (١٩٦)﴾ [الأعراف: ١٩٦].

قال سعيد بن المسيب لابنه: يا بني لأزيدن في صلاتي من أجلك رجاء أن أحفظ فيك، وتلا هذه الآية: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ [الكهف:٨٢].

وقال عمر بن عبد العزيز: ما مؤمن يموت إِلا حفظه الله في عقبه وعقب عقبه[١].

رابعًا: الانسجام مع الفطرة:

ومن أسباب حاجتنا إِلى الربانية أيضًا: سد النقص الذي في قلوبنا، والانسجام مع فطرتنا.. فلقد خُلقنا عبيدًا، ولم نُخلق أسيادًا لنا حرية التصرف المطلق في أجسادنا أو أموالنا، أو كل ما هو تحت أيدينا...

هذا المعنى مركوز في فطرتنا منذ العهد الأول: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعراف:١٧٢].

ولسنا وحدنا العبيد لله.. فكل ما نراه في هذا الكون الفسيح عبيد مثلنا: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم:٩٣].

لذلك فإِن الشرع والعقل والمنطق يؤكدون بأننا لن ننسجم مع فطرتنا أو مع الكون حولنا إِلا إِذا عشنا في حقيقة العبودية لله عَزَّوَجَلَّ، أما محاولة التمرد على هذه الحقيقة فلا تعني إِلا مزيدًا من الوحشة والضيق في صدورنا.

ولله در ابن القيم حين قال: ففي القلب شَعَثٌ، لا يلمه إِلا الإِقبال على الله.

.. وفيه وحشة لا يزيلها إِلا الأنس به في خلوته.

.. وفيه حزن: لا يُذهبه إِلا السرور بمعرفته وصدق معاملته.

.. وفيه قلق: لا يسكنه إِلا الاجتماع عليه والفرار إِليه.

---

(١) نور الاقتباس (ص١٣٢).

.. وفيه فاقة: لا يسدها إلا محبته والإنابة إليه ودوام ذكره، وصدق الإخلاص له، ولو أُعطي الدنيا وما فيها لم تسد الفاقة منه أبدًا[١].

ويؤكد على هذا المعنى ابن تيمية فيقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فالقلب لا يصلح ويُفلح ولا يلتذ، ولا يسر ولا يطيب، ولا يسكن ولا يطمئن إلا بعبادة ربه وحبه والإنابة إليه، ولو حصل له كل ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن ولم يسكن؛ إذ فيه فقر ذاتي إلى ربه، من حيث هو معبوده ومحبوبه ومطلوبه، وبذلك يحصل له الفرح والسرور واللذة والنعمة والسكون والطمأنينة[٢].

خامسًا: عودة العلم المفقود:

يقول رسول الله ﷺ: «**أَوَّلُ مَا يُرْفَعُ مِنَ النَّاسِ الْخُشُوعُ**»[٣].

فمن أسباب حاجتنا إلى الربانية: عودة هذا العلم، ولن يتم ذلك إلا إذا اتصلت القلوب بالله، وأحسنت الانتساب إليه.

عن جبير بن نفير عن أبي الدرداء قال: «كنا مع النبي ﷺ فشخص ببصره إلى السماء، ثم قال: «**هَذَا أَوَانُ يُخْتَلَسُ الْعِلْمُ مِنَ النَّاسِ حَتَّى لَا يَقْدِرُوا مِنْهُ عَلَى شَيْءٍ**» فقال زياد بن لبيد الأنصاري: كيف يختلس منا وقد قرأنا القرآن، فوالله لنقرأنه، ولنُقرئنّه نساءنا وأبناءنا؟ قال: «**ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا زِيَادُ، إِنْ كُنْتُ لَأَعُدُّكَ مِنْ فُقَهَاءِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، هَذِهِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ عِنْدَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَي فَمَا تُغْنِي عَنْهُمْ؟**» قال جبير: فلقيت عُبادة بن الصامت فقلت: ألا تسمع ما يقول أخوك أبو الدرداء؟ فأخبره الذي

---

(١) تهذيب مدارج السالكين (٥٦٦، ٥٦٧).

(٢) رسالة العبودية (ص١٣٢).

(٣) رواه الطبراني (٧/ ٢٩٥ برقم:٧١٨٣) عن شداد ابن أوس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا.

قال أبو الدرداء، قال: صدق أبو الدرداء إِن شئت لأحدثنك بأول علم يُرفع من الناس: الخشوع، يوشك أن تدخل مسجد الجامع فلا ترى فيه رجلًا خاشعًا»[١].

«فأخبر النبي ﷺ أن العلم عند أهل الكتابين من قبلنا موجود بأيديهم ولا ينتفعون بشيء منه لما فقدوا المقصود منه، وهو وصوله إِلى قلوبهم حتى يجدوا حلاوة الإيمان به ومنفعته بحصول الخشية والإنابة لقلوبهم، وإِنما هو على ألسنتهم تقوم به الحجة عليهم»[٢].

وقال الحسن: العلم علمان: علم باللسان وعلم بالقلب: فعلم القلب هو النافع، وعلم اللسان هو حجة الله على ابن آدم[٣].

«فالعلم النافع هو ما باشر القلوب فأوجب السكينة والخشية والإِخبات والتواضع والانكسار لله، وإِذا لم يباشر القلب ذلك من العلم، وإنما كان على اللسان فهو حجة الله على ابن آدم يقوم على صاحبه وغيره، كما قال ابن مسعود: إِن أقوامًا يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم ولكن إِذا وقع في القلب فرسخ فيه نفع»[٤].

ولهذا المعنى وصف الله تعالى في كتابه العلماء بالخشية كما قال تعالى:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨].

قال الربيع بن أنس: من لم يخشَ الله تعالى فليس بعالم، وقال ابن مسعود:

---

(١) رواه الترمذي (٥/ ٣١ برقم:٢٦٥٣) وقال: حسن غريب.

(٢) الذل والانكسار (ص ٤٦).

(٣) المصدر السابق (ص ٤٥).

(٤) الذل والانكسار، وقول ابن مسعود أخرجه الإمام مسلم في صحيحه (١/ ٥٦٣ برقم: ٨٢٢).

ليس العلم عن كثرة الحديث ولكن العلم عن كثرة الخشية.

وقد توعد الله عَزَّوَجَلَّ الذين لا تلين قلوبهم للذكر ولا يحدث عندهم الخشية، ومدح الذين تدركهم الخشية عند سماع كلامه، فقال تعالى: ﴿**فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾**﴾ [الزمر:٢٢،٢٣].

ولقد كان النبي ﷺ يستعيذ من قلب لا يخشع، كما جاء في صحيح مسلم عن زيد بن أرقم أن النبي ﷺ كان يقول: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا**»[1].

«فالعلم إِذا أثمر في القلب خشية وخشوعًا، فهذا هو العلم النافع الذي سأل النبي ﷺ ربه، وإِذا لم يثمر العلم في القلب خشية وإِخباتًا، فهذا هو العلم الذي تعوذ النبي ﷺ منه، وأمر الأمة أن تتعوذ بالله منه»[2].

قال سفيان الثوري: إنما يُتعلَّم العلم ليُتقى الله به، وإنما فُضِّل العلم على غيره لأنه يُتقى به الله[3].

وقديمًا حذَّر ابن الجوزي من الانشغال بصورة العلم دون فهم مقصوده، فقال: رأيتُ أكثر العلماء مشتغلين بصورة العلم، دون فهم حقيقته ومقصوده.

---

(١) صحيح مسلم (٤/ ٢٠٨٨ برقم: ٢٧٢٢).

(٢) تهذيب مدارج السالكين.

(٣) آفات العلم (ص٧١-٨٤) نقلًا عن جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر.

فالقارئ مشغول بالروايات، عاكف على الشواذ، يرى أن المقصود نفس التلاوة، ولا يتلمح عظمة المتكلم، ولا زجر القرآن ووعده.. وربما ظن أن حفظ القرآن يدفع عنه، فتراه يترخص في الذنوب، ولو فهم لعلم أن الحجة عليه أقوى ممن لم يقرأ.

والمحدِّث يجمع الطرق، ويحفظ الأسانيد، ولا يتأمل مقصود المنقول، ويرى أنه قد حفظ على الناس الأحاديث، فهو يرجو بذلك السلامة وربما ترخص في الخطايا، ظنًّا منه أن ما فعل في خدمة الشريعة يدفع عنه.

وعلى هذا أكثر الناس، صور العلم عندهم صناعة، فهي تكسبهم الكبر والحماقة[1].

فمن أجل تحصيل مقصود العلم وعودة ما رُفع منه كانت حاجتنا الماسة إِلى إِحياء الربَّانية.

سادسًا: التمكين لدين الله وتلقي نصره:

نصر الله عَزَّوَجَلَّ وتمكين منهجه لا يتنزل إلا على أناس ربانيين أحسنوا صلتهم بربهم: ﴿ **وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾** ﴾ [الأنبياء: ١٠٥، ١٠٦].

نعم.. إِن إقامة الدين لا تتحقق إِلا بجهد البشر... هكذا قضى الله عَزَّوَجَلَّ، ولكن هذا الجهد البشري له محوران: محور شعوري وجداني ومحله القلب، ويتمثل في قوة اتصال القلب بالله عَزَّوَجَلَّ، كما قال تعالى: ﴿ **وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ** ﴾ [الحج: ٤٠].

---

(١) صيد الخاطر (٥٥٢، ٥٥٣).

ومحور سلوكي يتمثل في اتخاذ الأسباب اللازمة لإقامة الدين والتي أوضحتها الآية الكريمة: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال:٦٠].

والاتجاه إلى المحور السلوكي وصب الجهد فيه دون التوجه إلى المحور الوجداني خطأ كبير وابتعاد عن الطريق الصحيح.

بل إن التوازن المطلوب بينهما لا يعني تساويهما في مقدار الجهد الذي ينبغي بذله لكل منهما.. فالمطلوب بذل الجهد الأكبر في تحسين العلاقة بالله وربط القلوب به سبحانه.. فقد يُعذر المؤمن إذا ما أحسن هذه الصلة، ثم قصر في اتخاذ بعض الأسباب لعوامل خارجة عن إرادته، أما العكس فلا.

وهذا ما كانت تفهمه الأجيال الأولى التي انتصرت بأعداد قليلة على جحافل الكافرين في اليرموك والقادسية ونهاوند وغيرها، وكانت ترى أن تأخر النصر لا يرجع إلى تقصير في الأخذ بالأسباب المادية بقدر ما هو تقصير في حق من حقوق الله، أو ضعف قد حدث في صلة القلوب به سبحانه.

تأمل قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران:١٢٠] فأين الأسباب المادية هنا؟ وأين التكافؤ المادي في قوله تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ﴾ [الأنفال:٦٥]؟ وما هو نوع الضعف المذكور في الآية: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ﴾ [الأنفال:٦٦]؟

إن هذا لا يعني إهمال الأسباب، ولكن ما نقصده هو شدة الاهتمام بربط القلوب بالله، وحسن الانتساب إليه إذا ما أردنا أن نتلقى نصر الله.

قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [المائدة:٥٦].

فإن كنت في شك من هذا فاقرأ معي وصية عمر بن الخطاب لسعد بن أبي وقاص ومن معه يودعهم غداة توجههم للقادسية، قال له:

«يا سعد، سعد بنى وهيب، عليك بتقوى الله، فإن الله لا يمحو السيئ بالسيئ، ولكن يمحو السيئ بالحسن، ولا يغرنك أن يقال: صاحب رسول الله ﷺ، وخال رسول الله ﷺ، فإن الله عَزَّوَجَلَّ ليس بينه وبين أحد سبب إلا طاعته، فالناس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء، الله ربهم وهم عباده، يتفاضلون بالعاقبة، ويدركون ما عنده بالطاعة، ألم تسمع لقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ﴾ [القصص: ٨٤]، و ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ ﴾ [النمل: ٩٠]، وقد رأيت رسول الله ﷺ مذ بعثه الله حتى قبض إليه، فالزم ما رأيته عليه..

وفى رواية أنه قال لما أراد أن يسرحه:

إني قد وليتك حرب العراق فاحفظ وصيتي، فإنك تقدم على أمر شديد كريه لا يخلص منه إلا الحق، فعود نفسك ومن معك الخير، واستفتح به، واعلم أن لكل عادة عتادًا، وعتاد الخير الصبر، فالصبر الصبر تجتمع لك به خشية الله، واعلم أن خشية الله تجتمع لك فى أمرين:

فى طاعته واجتناب معصيته، وإنما أطاعه من أطاعه بحب الآخرة وبغض الدنيا، وعصاه من عصاه بحب الدنيا وبغض الآخرة، وللقلوب حقائق ينشئها الله عَزَّوَجَلَّ إنشاء، منها السر والعلانية، فأما العلانية فأن يكون حامده وذامه في الحق

سواء، وأما السر فيعرف بظهور الحكمة من قلبه على لسانه، وبمحبة الناس إليه، فلا تزهد في التحبب فإن النبيين قد سألوا محبتهم، وإن الله تعالى إذا أحب عبدًا حببه إلى خلقه، وإذا أبغض عبدًا بغضه إليهم، فاعتبر منزلتك عند الله عَزَّوَجَلَّ بمنزلتك عند الناس، ممن يسرع معك في أمرك.

وذكر المدائني أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كتب لسعد مع ما أوصاه به عهدًا يقول له فيه:

أوصيك بتقوى الله والرغبة فيما عنده، فادع الناس إلى الله، فمن أجابك فهو أولى بماله وأهله وولده، وليس لك منه إلا زاد بلاغ إن احتجت، وعظ نفسك وأصحابك ولا تكثر عليهم فيملوا، واجعلهم رفقاء إخوانًا، وألن لهم جناحك، وحطهم بنفسك كنفسك، واعلم أن المسلمين في جوار الله، وأن المسلم أعظم الخلق عند الله حرمة، ولا يطلبنك الله بخفرته في أحد منهم، واحذر عليهم واحفظ قاصيتهم، وعد مريضهم، وانصف مظلومهم، وخذ لضعيفهم من قويهم، واصلح بينهم، وألزمهم القرآن وخوفهم بالله، وامنعهم من ذكر الجاهلية وما كان فيها، فإنها تورث الضغينة وتذكرهم الذحول، واعلم أن الله قد توكل من هذا الأمر بما لا خلف فيه، فاحذر أن يصرف الله ذلك عنك بذنب ويستبدل بكم غيركم، واحذر من الله ما حذركم من نفسه، فإنك تجد ما قدمت يداك من خير محضرًا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدًا بعيدًا»[١].

---

(١) الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء (٢/ ٤٣٣)، الذحول: الثأر والحقد.

سابعًا: القرب من الله في الآخرة:

فعلى قدر قربنا منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الدنيا وقوة صلتنا به، نكون كذلك في الآخرة.

يقول ابن رجب: الوصول إلى الله نوعان:

أحدهما في الدنيا، والثاني في الآخرة. فأما الوصول الدنيوي فالمراد به: أن القلوب تصل إلى معرفته، فإذا عرفته أحبته، وأنست به، فوجدته منها قريبًا، ولدعائها مجيبًا، كما في بعض الآثار: ابن آدم اطلبني فإن وجدتني وجدت كل شيء، وإن فُتك فاتك كل شيء.

وأما الوصول الأخروي: فالدخول إلى الجنة التي هي دار كرامة الله لأوليائه، ولكنهم في درجاتها متفاوتون في القرب بحسب تفاوت قلوبهم في الدنيا في القرب والمشاهدة.

قال تعالى: ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿٩﴾ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ [الواقعة: ٧-١١][1].

(١) المحجة في سير الدلجة (٧٨-٨٠) باختصار.

الفصل الرابع

دليل الربانية

- مفتاح الطريق إلى الربانية.
- علاج الفتور وضعف الهمة.
- الملامح العامة للطريق.
- القرآن يتحدث عن نفسه.
- القرآن والربانية.
- الباب الوحيد للانتفاع الحقيقي بالقرآن.

دليل الربَّانية

قبل الحديث عن دليل الربَّانية، هناك أمر مهم ينبغي الإِشارة إِليه، وهو أن القلوب مهما بلغ مرضها، واشتدت قسوتها إِلا أنها تظل تحمل في طياتها إِمكانية عودتها إِلى الصحة والحياة مرة أخرى، وإِلى هذا المعنى يشير قوله تعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الحديد:١٧].

والملاحظ أن هذه الآية جاءت بعد الآية التي عاتب الله فيها عباده المؤمنين على عدم خشوع قلوبهم لذكره: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الحديد:١٦].

يعلق ابن كثير على هاتين الآيتين فيقول: ففي ذكره تعالى لهذه الآية بعد التي قبلها تنبيه على أنه تعالى كما يحي الأرض بعد موتها، كذلك يحي القلوب بالإِيمان والهدى بعد قسوتها من الذنوب والمعاصي[١]، ويولج إِليها النور بعد أن كانت مقفلة لا يصل إِليها الواصل[٢].

ولعل في جيل الصحابة خير شاهد على ذلك فحسان بن ثابت أسلم وهو في الستين من عمره، وعكرمة بن أبي جهل مات شهيدًا في اليرموك بعد أن كان النبي ﷺ قد أهدر دمه عند فتح مكة، وغيرهما وغيرهما.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٣) (المقدمة).

(٢) المصدر السابق (٤/ ١٨٠)

مفتاح الطريق إلى الربانية:

مع وجود هذه الإمكانية في القلوب يبقي العامل الأساسي الذي يترجمها إلى الواقع هو قوة الرغبة وشدة الحاجة إلى وجود القلب الحي، واليقين بأن الله عَزَّوَجَلَّ وحده هو القادر على ذلك.

هذه الرغبة، وهذا اليقين، هما البداية التي لا بد أن يتبعها استعانة قوية بالله عَزَّوَجَلَّ تتمثل في دعائه والإلحاح عليه، دعاء المضطر المكروب المشرف على الغرق.

ولقد وعد الله عَزَّوَجَلَّ بإجابة دعاء من يدعوه باضطرار:

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [النمل:٦٢].

فالاستغاثة بالله عَزَّوَجَلَّ والدخول عليه بجلباب الذل والفقر والمسكنة يُعرِّض صاحبه لفضل الله ورحمته: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ ﴾ [الأنفال:٦].

ولا يكفي أن ندعو الله مرة أو مرتين بهذه الطريقة ثم ننصرف، فالله عَزَّوَجَلَّ يريد أن يرانا جادين وصادقين في طلبنا.. قال رسول الله ﷺ: «**يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ، يَقُولُ: دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي**»[1].

فهذا هو المفتاح الذي من فقده ضل الطريق.

... لا بد من إِلحاح وإِلحاح على الله مرات ومرات بأن يمن علينا بمعرفته، ولا ينبغي أن نمل من ذلك إِن لم نجد استجابة سريعة لدعائنا، فالله عَزَّوَجَلَّ قد

---

(١) رواه البخاري (٨/ ٧٤ برقم: ٦٣٤٠)، ومسلم (٤/ ٢٠٩٥ برقم: ٢٧٣٥).

يؤخرها ليرى مدى رغبتنا وصدقنا في طلب ما ندعوه به...

ولنتأمل قصة الثلاثة الذين خلفوا عن غزوة تبوك كسلًا لا نفاقًا، وكيف أنهم بعد أن قاطعهم الجميع وضاقت عليهم الأرض بما رحبت.. اتجهوا بكليتهم إلى الله، ملحين عليه بالاستغفار والتوبة يومًا بعد يوم حتى جاءهم الفرج بعد خمسين يومًا:

﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١١٨﴾ [التوبة:١١٨].

جاء في الأثر: «إن العبد ليدعو الله عَزَّوَجَلَّ وهو عليه غضبان فيعرض عنه، ويدعوه فيعرض عنه، ثم يدعوه فيقول لملائكته: أبى عبدي أن يدعو غيري يدعوني فأعرض عنه أشهدكم أني قد استجبت له»[١].

وكان رجل من أصحاب ذي النون يطوف في السكك يبكي وينادي: أين قلبي؟ أين قلبي؟ من وجد قلبي؟! فدخل يومًا بعض السكك فوجد صبيًّا يبكي وأمه تضربه، ثم أخرجته من الدار وأغلقت الباب دونه. فجعل الصبي يلتفت يمينًا وشمالًا، ولا يدري أين يذهب، ولا أين يقصد، فرجع إلى باب الدار، فوضع رأسه على عتبته فنام، فلما استيقظ جعل يبكي ويقول: يا أماه من يفتح لي الباب إذا أغلقت عني بابك، ومن يدنيني من نفسه إذا طردتني، ومن الذي يؤويني إذا غبت عليَّ. فرحمته أمه، فقامت فنظرت عليه من خلل الباب فوجدت ولدها تجري

(١) الدعاء للطبراني (برقم:٢١).

الدموع على خده متمعكًا في التراب، ففتحت له الباب وأخذته حتى وضعته في حجرها، وجعلت تقبله وتقول: يا قرة عيني وعزيز نفسي، أنت الذي حملتني على نفسك، وأنت الذي تعرضت لما حلَّ بك، لو كنت أطعتني لم تلقَ مني مكروهًا.

فقام الرجل وصاح، وقال: قد وجدت قلبي.. قد وجدت قلبي[(١)].

لقد عرف هذا الرجل الطريق لاسترضاء الله عَزَّوَجَلَّ.. ولا طريق لذلك إِلا بالإِلحاح والتضرع إِليه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فعلينا مداومة قرع الباب؛ كما قال أبو الدرداء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «جدوا بالدعاء فإنه من يكثر قرع الباب يوشك أن يفتح له»[(٢)].

علاج الفتور وضعف الهمة:

قد يقول قائل: إِننى مقتنع بكل ما سبق ولكنني أجد في نفسي فتورًا، وأستشعر ضعف عزيمتي، وإِرادتي؛ مما يجعلني غير قادر على دعاء الله عَزَّوَجَلَّ بهذا الإِلحاح.

... نعم.. هذه الحالة كثيرًا ما عشنا مثلها، وما زلنا نعاني منها، ولعلنا نجد حلًّا لها في حديث الرسول ﷺ الذي قال فيه: «**مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ غَالِيَةٌ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ الجَنَّةُ**»[(٣)].

فهذا الحديث يضع نقطة البداية لمن ضعفت عزيمته -من أمثالنا- فمن استشعر أهمية ما يريد، وخاف ضياعه فإِنه لا ينتظر إِلى الصباح ليذهب إِليه، بل يبادر بالسير ولو ليلًا، ومن كانت هذه همته وصل إِلى مقصوده.

---

(١) شرح حديث: لبيك اللهم لبيك (ص ١٤٠، ١٤١).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة (٦/ ٢٢ برقم:٢٩١٧٥).

(٣) رواه الترمذي (٤/ ٦٣٣ برقم: ٢٤٥٠) وقال: حسن غريب.

فكيف بأعظم وأغلى سلعة: الجنة، أليس من الأحرى أن يبادر الجميع إِلى تحصيلها مثل مبادرتهم للحصول على السلع الأخرى؟ إِن لم يكن أشد!

إن استشعار أهمية ما نريد، والخوف أن يحال بيننا وبينه إن لم نبادر إِليه لكفيل بشحذ هممنا وتقوية إرادتنا، ودفعنا للمبادرة باغتنام الوقت.

ولكن ما الذي قد ينزل بنا فَيَحُول بيننا وبين السير إلى الله وإلى جنته؟!

.. إِنه الموت، هادم اللذات، ومفرق الجماعات.

.. إنه الموت الذي يأتي بغتة: في أي وقت، وفي أي مكان ودون سابق إِنذار...

.. الموت الذي قد يأتينا اليوم فيحال بيننا وبين القيام بأي عمل.

إِن أهل القبور يتمنون جميعًا أن يعودوا إلى الدنيا ولو للحظة ليسبحوا أو يركعوا أو يسجدوا لله عَزَّوَجَلَّ.

فلنكثر إِذن من ذكر الموت، ولنذهب إلى المقابر، نزور أهلها، ونسلم عليهم، ونتذكر من كان معنا من الأقارب والأحباب ثم فرّق الموت بيننا وبينه.

وليجهز كل منا كفنه وليكتب وصيته، وليذهب إلى المستشفيات يزور المرضى وأصحاب الحالات الحرجة...

قال رسول الله ﷺ: «**أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَادِمَ اللَّذَّاتِ: المَوْتَ، فَمَا ذَكَرَهُ عَبْدٌ قَط وَهُوَ فِي ضِيقٍ إِلَّا وَسَّعَهُ عَلَيْهِ، وَلَا ذَكَرَهُ وَهُوَ فِي سَعَةٍ إِلَّا ضَيَّقَهُ عَلَيْهِ**»[(١)].

---

(١) رواه بهذا اللفظ ابن حبان في صحيحه (٧/ ٢٦٠ برقم:٢٩٩٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٣/ ١٣٩ برقم:١٠٠٧٦).

وقالت صفية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: إن امرأة اشتكت إلى عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قساوة قلبها فقالت: أكثري ذكر الموت يرق قلبك، ففعلت فرقَّ قلبها.

وروي أن رجلًا سألها: ما دواء قسوة القلب؟ فأمرته بعيادة المرضى وتشييع الجنائز، وتوقع الموت[(١)].

فإن وجدنا صعوبة أو انشغالًا يحول بيننا وبين كثرة ذكر الموت، فلننتهز فرصة مواسم الطاعات كشهر رمضان وأوقات العمرة والحج، ففيها يزداد الإيمان، ويذهب الفتور، وتسلس قيادة النفس، وفيها كذلك نفحات من الله عَزَّوَجَلَّ تهبُّ على قلوب عباده، فالسعيد من تعرض لها وانتفع بها، وجعلها نقطة بداية سيره إلى الله.

عن محمد بن مسلمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ لِرَبِّكُمْ فِي أَيَّامِ دَهْرِكُمْ نَفَحَاتٌ فَتَعَرَّضُوا لَهُ، لَعَلَّهُ أَنْ يُصِيبَكُمْ نَفْحَةٌ مِنْهَا فَلَا تَشْقُونَ بَعْدَهَا أَبَدًا**»[(٢)].

فإن لم نفلح في ذلك، ومرت علينا هذه المواسم دون أن نلح فيها على الله بأن ييسر لنا طريق العودة إليه؛ فعلينا أن نغتنم فرصة وجود حدث كبير نتعرض له ينكسر فيه القلب لله عزوجل ويستشعر حاجته إليه كأوقات الابتلاء والعسر والضيق.

وعلينا كذلك أن نكثر من عمل الخير: ﴿ **إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا** ﴾ [الأنفال:٧٠].

ولا ننسى الاستغفار فهو من أفضل الوسائل لاستجلاب الرحمة ورفع العذاب: ﴿ **لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** ﴿٤٦﴾ ﴾ [النمل:٤٦].

---

(١) ذم الهوى لابن الجوزي (ص ٩٢).

(٢) رواه الطبراني في الكبير (١٩/ ٢٣٣) والأوسط (٣/ ١٨٠).

الملامح العامة للطريق

أى طريق يود الإِنسان أن يسير فيه ويصل من خلاله إِلى هدف محدد يحتاج إلى دليل يدل عليه، ويبين أبعاده ومراحله، ويحذر السائرين فيه مما سيعترضهم من عقبات ومنحنيات، ويرشدهم إلى كيفية تجاوزها.

ويحتاج الطريق كذلك إلى وسيلة ومَركَبة تُقطع بها مسافاته، فمن أراد الوصول إلى هدفه لا بد من اجتماع الاثنين معًا. فوجود الدليل مع شخص ما لا يكفي لبلوغه هدفه إِلا إذا تحرك به وسار وراءه، وفي المقابل فالتحرك دون هذا الدليل مخاطرة لا تؤمن عواقبها.

فإن كان هذا فيما يخص طرق الدنيا فما بالك بالرحلة إِلى الله وطريق السفر إليه، ألا يستحق منا أن نبحث عن دليل أمين ومرشد ماهر نعتصم به ونسير وراءه ونستمتع بصحبته؟

سيقول الجميع: نعم، ولكن أين هو هذا الدليل الذي ستجتمع عليه كلمتنا جميعًا؟!

عندما يصبح أمامنا عدة خيارات سنعاني بالفعل من صعوبة الاتفاق على واحد منها، أما إن كان الاختيار من عند الله، فالوضع بلا شك سيختلف، ولن نسمح لأنفسنا بالاختلاف عليه، فالله عَزَّوَجَلَّ هو الذي خلقنا ويعلم ما يصلح لنا: ﴿ **أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** ﴿١٤﴾ ﴾ [الملك: ١٤]

ولقد اختار لنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ دليلًا أمينًا وسائقًا ماهرًا يدلنا على الطريق إليه.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ ﴾ [النساء: ١٧٤، ١٧٥].

لماذا أنزل الله القرآن؟!

خلق الله عَزَّوَجَلَّ الإنسان وكرمه على سائر خلقه، وحمّله الأمانة.. أمانة عبادته بالغيب في ظل تمتعه بإرادة حرة، ومع وجود نفس ترغب دومًا في الحصول على ما تشتهيه، وتكره التكاليف والمشقات، ومن وراء النفس يقف الشيطان الرجيم الذي أقسم بعزة الله على العمل الدؤوب لغواية البشر وسوقهم معه إلى النار، واستثنى في ذلك من دخل معية الله وحمايته وأصبح من عباده المخلصين: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣].

ولقد جعل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الأرض مكانًا يؤدي فيه البشر امتحان عبوديتهم له.

قال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الكهف: ٧].

وقبل بدء الامتحان ونزول الناس إلى الأرض أخذ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليهم العهد بعبادته وتوحيده، وجعل هذا العهد مركوزًا في ذواتهم: فطرة، تميل بهم إلى الحق:

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الروم: ٣٠].

وبناءً عليه بدأ هبوط البشر إلى الأرض مجموعة تلو مجموعة ليؤدوا امتحان العبودية، ثم العودة مرة أخرى إلى الله ليحاسبهم عن المهمة التي كُلِّفوا بها ويجازي بالجنة من حافظ على العهد، وبالحبس في النار لمن سار وراء هوى نفسه والشيطان ونقض عهد الله.. قال تعالى:

﴿ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ ﴾ [الكهف:٤٨].

ومنذ أن وطئت أقدام البشر على الأرض وإبليس يعمل جاهدًا على غوايتهم والسير بهم في طريق الضلال والنار، مستغلًّا حب أنفسهم للشهوات حسية كانت أو معنوية، ولم يشأ الله عَزَّوَجَلَّ أن يترك عباده فريسة لهذا اللعين فأرسل لهم رسائل تذكرهم به سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وبالغاية من خلقهم، وتخوّفهم من المآل الذي ينتظرهم إِن استمروا على ما هم عليه، وتبشرهم بموعود ربهم إِن عبدوه وأطاعوا أوامره.

فجوهر تلك الرسائل جميعًا هداية البشر إلى الله وإِنقاذهم من طريق الشيطان.. قال تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ ﴾ [النساء:١٦٥].

وآخر رسالة أرسلها الله عَزَّوَجَلَّ للبشرية جمعاء هي القرآن الكريم، فهو الرسالة الخاتمة التي لن يُرسل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ سواها حتى قيام الساعة؛ لذلك كانت رسالة جامعة، وافية لجميع حاجات البشر مع اختلاف الزمان والمكان. وجعل مقصودها الأساسي كأخواتها من الرسائل السابقة هداية الناس إِليه سبحانه: ﴿ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الجاثية:٢٠].

ولقد اختار سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خير خلقه ليقوم بحملها إلى الناس، وقام بحفظها من التبديل والتحريف، لتستمر تؤدي دورها في الهداية حتى آخر جيل ينزل إلى الأرض قبل قيام الساعة.

القرآن يتحدث عن نفسه:

تحدث القرآن كثيرًا عن نفسه واصفًا دوره وجوانب الهداية فيه ليدرك الناس أهميته ومدى حاجتهم الماسة إليه.. فمن سماته أنه:

يحي القلب:

القرآن أفضل وسيلة لإحياء القلب وولادته من جديد مهما كانت قسوته.

قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ ﴾ [الشورى:٥٢]...

فهو روح القلوب، يحييها من جديد، كالغيث الذي يحي الأرض بعد موتها.

وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤]، قال قتادة: ﴿ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾: هو هذا القرآن، فيه النجاة والبقاء والحياة[1].

ينير البصيرة:

القرآن ليس روحًا للقلوب فقط، بل هو أيضًا نور ينير بصيرتها ويبين لها طريقها إلى الله: ﴿ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ ﴾ [الشورى:٥٢]. فهو يجمع بين قدرته على إحياء القلوب وتنويرها بإذن الله.

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢/ ٢٧٣).

قال تعالى: ﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [المائدة:١٥، ١٦].

دواء للقلب:

هذا الكتاب به العلاج الناجع لجميع أمراض القلوب مهما كانت شدتها:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [يونس:٥٧].

يسعد صاحبه:

فالقرآن مصدر السعادة وأكبر عوض عن الدنيا وما فيها.. بل ما نسبة نعيم الدنيا بحلاوة وأنس القرآن؟! ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾

[الحجر:٨٧، ٨٨].

يزيد الإيمان:

القرآن أفضل وسيلة لزيادة الإيمان وبناء قاعدته في القلب:

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [الأنفال:٢].

يجلي البصيرة:

فبه تتم التذكرة الدائمة بالله عَزَّوَجَلَّ وحقوقه علينا، وبقصة وجودنا على الأرض،

والمهمة التي خُلقنا من أجلها، وبالشيطان ومداخله، وبالنفس وعيوبها.. قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

[الزمر:٢٧].

بشير ونذير:

كثيرًا ما يصف القرآن نفسه بأنه بشير ونذير، يبشر المؤمنين بالجنة فتشتاق القلوب لها وتحن إليها، ويُنذر بالنار لتخاف النفوس وترتدع فتستقيم على أمر الله:

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴾

[الكهف:١، ٢].

أهم مصدر للعلم النافع:

قال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [النحل:٨٩].

وهو كذلك أفضل موعظة تعيد مستمعها إلى رشده، وأعظم منهج ندعو به إلى الله على بصيرة.. إنه الرحمة العظمى التي اختص الله بها هذه الأمة:

﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [يوسف:١١١].

القرآن والربانية:

القرآن العظيم هو الدليل الذي جعله الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ يدل عليه، فلقد أرشد فيه

عباده إلى كل ما يقربهم إليه، وبيّين فيه كذلك كل ما يعترض السائرين في طريقه من عقبات ومنحنيات.

إنه حبل الله المتين من استمسك به وسار وراءه قاده إلى الله وإلى رضوانه: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ ﴾ [الإسراء:٩].

من هنا يتأكد لنا أنه لا ربانية بدون الاعتصام بالقرآن:

﴿ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [آل عمران:٧٩].

فعلى قدر صلتنا بالقرآن تكون صلتنا بالله عَزَّوَجَلَّ.

قال رسول الله: «**أَلَيْسَ تَشْهَدُونَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ؟**» قالوا: بلى.

قال: «**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ سَبَبٌ، طَرَفُهُ بِيَدِ اللهِ، وَطَرَفُهُ بِأَيْدِيكُمْ، فَتَمَسَّكُوا بِهِ فَإِنَّكُمْ لَنْ تَضِلُّوا، وَلَنْ تَهْلَكُوا بَعْدَهُ أَبَدًا**»[1].

فلا طريق إذن إلا طريق القرآن، ولا حياة لقلوبنا ولا قرب من مولانا إلا به، وكيف لا وهو الطريق الذي اختاره الله لنا، وهو الذي قالت عنه الجن حين استمعت إليه: ﴿ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأحقاف:٣٠].

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ١٢٥ برقم: ٣٠٠٠٦)، وابن حبان في الصحيح (١/ ٣٢٩ برقم: ١٢٢)، والطبراني (٢٢/ ١٨٨) واللفظ له [بلى].

وفي هذا المعنى يقول خباب بن الأرت لجار له: ياهناه تقرب إلى الله ما استطعت، واعلم أنك لن تتقرب إليه بشيء أحب إليه من كلامه[١].

فخلاصة القول أن من أراد السير الصحيح المأمون إلى الله عَزَّوَجَلَّ فعليه بالقرآن، فهو الدليل الأمين والمرشد الماهر إليه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ۝٢٧ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ ﴾ [التكوير:٢٧، ٢٨].

أخي:

إن القرآن الذي بين أيدينا هو الذي أوصل الربانيين من قبلنا إلى الله عَزَّوَجَلَّ وعرّفهم به، وبه انصلح حال أول هذه الأمة، وهو المنهج الذي تربى عليه الجيل الأول فكان خير الأجيال.. قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٥١ ﴾ [العنكبوت:٥١].

الباب الوحيد للانتفاع الحقيقي بالقرآن:

لكي تتم لنا الاستفادة من القرآن كدليل يهدينا إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وسببًا يقربنا إليه ويصلنا به، ودواءً نستشفي به من أمراضنا، ومصدرًا للغنى والسعادة، وجلاءً للهموم والغموم والأحزان.. لكي يتم لنا كل هذا وغيره.. لا بد من التعامل معه بالطريقة الصحيحة.

ولكي نتعامل مع القرآن بطريقة تحقق لنا الهدف الأسمى من نزوله؛ لا بد أن ندخل إليه من بابه الأساسي ونغلق كل الأبواب الجانبية التي تم فتحها على مدار

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك وصححه ووافقه الذهبي.

تاريخ الأمة بعد جيل الصحابة رضوان الله عليهم.

إن الباب الأوحد للانتفاع بالقرآن وتحقيق مراد الله بنزوله يستلزم الاعتقاد الجازم أنه المصدر المتفرد الذي لا مثيل له لتحصيل الهداية الشاملة، والشفاء التام، والعلم النافع، والتغيير الجذري، وأن يتم التعامل معه بناء على هذا الاعتقاد، بما تعبِّر عنه عبارة «**الإيمان قبل القرآن**».. أي: الإيمان بأن القرآن هو المصدر الوحيد للهداية الشاملة التامة، وأنه لا يمكن تحصيلها بدونه..

.. والإيمان بأن القرآن هو الدواء الناجع المتفرد لشفاء القلب وعودته إلى صحته وفطرته..

.. والإيمان بأن القرآن هو المصدر الأسمى للعلم النافع المقرب إلى الله، والمورث لخشيته، وأنه لا يوجد مصدر آخر يضاهيه أو يقترب منه..

.. والإيمان بأن القرآن هو القادر -بإذن الله- على تغيير أي إنسان، ومن أي وضع سلبي هو فيه إلى الحال الذي يرضي الله عَزَّوَجَلَّ، ويلحق صاحبه بصفوف عباد الله الصالحين المصلحين..

.. ومن أهم ثمرات صحة هذا الإيمان: الاعتصام بالقرآن والاستمساك التام به؛ ومن ثم التمتع بولاية الله وكفايته ونصرته.. قال رسول الله ﷺ لأصحابه يومًا: «**أَبْشِرُوا أَبْشِرُوا أَلَيْسَ تَشْهَدُونَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ؟**»، قالوا: نعم، قال: «**فَإِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ سَبَبٌ، طَرَفُهُ بِيَدِ اللهِ، وَطَرَفُهُ بِأَيْدِيكُمْ، فَتَمَسَّكُوا بِهِ فَإِنَّكُمْ لَنْ تَضِلُّوا، وَلَنْ تَهْلَكُوا بَعْدَهُ أَبَدًا**»[١].

---

(١) رواه ابن أبي شيبة بهذا اللفظ في المصنف (٦/ ١٢٥ برقم: ٣٠٠٠٦)، وابن حبان في الصحيح (١/ ٣٢٩ برقم: ١٢٢)، والطبراني (٢٢/ ١٨٨).

من لوازم الاستمساك بالقرآن:

لكي يسير المرء في طريق تحصيل الاستمساك التام بالقرآن فإنه يحتاج إلى دوام تغذية إيمانه به، وكذلك التجرد له، أي ملازمته، والانشغال به، والتفرُّغ له، والإكثار من تلاوته قدر المستطاع.

وليس المقصد بالإكثار من تلاوته: الإكثار من ختمه باللسان فقط؛ بل المقصد أن تكون تلاوةً يشترك فيها اللسان والعقل والقلب، فاللسان يرتل ويتغنى بالقرآن، والعقل يفكر في الخطاب الإلهي، والمشاعر تتجاوب وتتأثر مع المعاني التي يصل إليها العقل بتفكره.

نعم، ينبغي علينا ألا نكتفي بالتفكير في الآيات بل علينا أن نحقق قوله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾[ص: ٢٩].

ولكن الطريق إلى ذلك يبدأ بالتفكُّر العقلي في الآيات والعمل على التأثر والاتعاظ بها، وبالمداومة على ذلك يرق الحجاب والطبع المضروب على القلب، وينفتح قفله شيئًا فشيئًا فتمسه أثر تلك الآيات، وترسخ فيه معانيها، فتُشكِّل جزءًا من مشاعره ويزداد الإيمان بمدلولها..

قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد: ٢٤].

فالأقفال قد أوصدت قلوبنا وأحكمت إغلاقها، ولا سبيل للانتفاع الحقيقي بالقرآن وتدبره بالمعنى الصحيح للتدبر النافع إلا بفتحها.. والطريق إلى ذلك يبدأ بطول المكث مع القرآن والتفكر في آياته والعمل علي التأثر والاتعاظ والتذكر من خلالها..

.. ويحتاج النجاح في الاستمساك الصحيح بالقرآن إلى الدخول عليه بنفسية الأمي المتشوق إلى العلم والمعرفة والهداية والشفاء والتغيير، ولديه الاستعداد الكامل لتغيير قناعاته إذا ما خالفت القرآن.

وإليك -**أخي**- مثالًا لهذه النفسية التي نحتاجها ونحن نتعامل مع القرآن:

طالب الطب الذي يدرس المواد المقررة عليه ويجتهد في ذلك؛ ماذا يكون حاله إذا ما قدر الله له مقابلة أستاذ مادة من هذه المواد ومؤلف الكتاب الذي يستذكر منه دروسه، ثم استمع منه إلى شرح درس يظن في نفسه أنه قد أجاد فهمه واستيعابه، ففوجئ بأن كلام الأستاذ يخالف ما فهمه من الكتاب وتأكد الأمر لديه حين ناقشه، فهل سيصرُّ هذا الطالب على رأيه؟!.. في الغالب سيتهم فهمه ويستسلم لما سمعه، ويغير قناعاته بناء على ذلك.

وإذا ما أُتيحت له الفرصة مرة أخرى للاستماع إلى أستاذه، وتكرر أمر اختلاف فهمه عما يسمعه منه، فلن يناقشه في ذلك، وإن حدث وناقشه في جزئية (ما) فباستحياء شديد، واستعداد كبير لتخطئة فهمه هو، وإذا ما استمع إليه ثالثًا ستراه -في الغالب- مستسلمًا لكلامه مهيأً لتخطئة فهمه وقناعاته إذا ما تعارضت مع ما يقوله أستاذه.

.. هذا مثال قريب لما ينبغي أن يكون عليه حالنا عند الدخول إلى القرآن.

ويؤكد على جوهر هذا المعنى أبو الأعلى المودودي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- فيقول: يجب -كخطوة أولى- على كل من يريد فهم القرآن... أن يخلي ذهنه ما أمكن من جميع ما استقر فيه من قبل من التصورات والنظريات، ويطهره من سائر ما يكنه من الرغبات الموالية أو المناوئة، ثم يكبّ على دراسته بقلب مفتوح وأُذن واعية وقصد

نزيه لفهمه. أما الذين يدرسونه واضعين طائفة من التصورات في أذهانهم مقدمًا فما يقرؤون بين دفتيه إلا تصوراتهم أنفسهم، ولا يجدون شيئًا من رائحة القرآن، ولا يصلح هذا المنهج لدراسة أي كتاب من الكتب، فكيف بالقرآن[١].

.. ونكرر بأن المقصود من الدخول إلى القرآن بنفسية الأمي الشغوف المتلهفة إلى المعرفة والتغيير: أي أن ندخل إليه بدون أفكار مسبقة نبحث عن تأكيدها منه، بل المطلوب العكس، ويؤكد على هذا المعنى علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقوله: «... واتهموا عليه آراءكم، واستغشوا فيه أهواءكم..»[٢]، ومن الضروري أن يصحب ذلك رغبة وشغف لتحصيل العلم النافع، والهداية، والإيمان، والشفاء، يترجمه تلهف على لقائه، وانشغال به...

صعوبة التلبس بنفسية الأمي:

فإن قلت: ولكن من الصعب التحقق بهذه النفسية..

.. نعم، قد يصعب ذلك، ولكن بالمثابرة والعزم وطلب الإعانة من الله يتيسر هذا الأمر، أليس هو القائل: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت: ٦٩]؟

ولكي نكون واقعيين؛ هناك بالفعل بعض العوامل التي تجعل أمر التحقق بنفسية الأمي فيه شيء من الصعوبة.. منها تقدم العمر، فكلما ابتعد عمر المرء عن العشرين عامًا زادت صعوبة التلبس بهذه النفسية، وازدادت صعوبة التخلي عن القناعات السابقة إذا ما عارضت القرآن، بل قد يحدث العكس أن يطوع المرء فهمه للآيات في اتجاه قناعاته هو، أي يجعل حصيلة ما تعلمه من قبل هو المقياس الذي يُقيِّم به

(١) المبادئ الأساسية لفهم القرآن (ص:٢٦).

(٢) نهج البلاغة.

ما يتلقاه من القرآن، وحين يكون هناك تعارض بينهما تجده يجتهد في تطويع فهمه للآيات في اتجاه التوافق مع ما رسخ لديه من مفاهيم وتصورات وليس العكس.

ومما يساعد على زيادة صعوبة التلبس بنفسية الأمي الشغوف للمعرفة والتغيير: التحاق المرء منذ صغره بمدارس ومعاهد وحلقات التعليم الديني وتشكيل جزء كبير من يقينه وعقله اللاواعي بمفاهيم ومعتقدات تجعل صاحبها -بمرور الزمن وتقدم العمر- متشبعًا بما عنده، ولا يشعر بالاحتياج للتعلم؛ ومن ثم تجده لا يتلقى ما يخالف قناعاته كما يتلقاه الأمي ومن هو على شاكلته.

والجدير بالذكر أن التّشبُّع بما حصله المرء من علم واعتباره مقياسًا للجديد الذي يتلقاه كان أحد المعوقات التي تسببت في عدم استقبال أهل الكتاب للقرآن بالانبهار الذي استقبلته به أمة العرب الأمية..

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في تفسير قوله تعالى: ﴿ **وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾** ﴾ [البقرة: ٨٨]. (قالوا: قلوبنا مملوءة علمًا، لا تحتاج إلى علم محمد ولا غيره[١]، وعلى هذا المعنى جاءت قراءة بعض الأنصار فيما حكاه ابن جرير: «وقالوا قلوبنا غلف» بضم اللام، أي جمع غلاف، أي أوعية، بمعنى أنهم ادعوا أن قلوبهم مملوءة بعلم لا يحتاجون معه إلى علم آخر)[٢].

.. إن تَشبُّع العقول والقلوب بالعلم الذي تلقته من خلال دراستها العلمية المنهجية كان ولا يزال يشكل عائقًا كبيرًا أمام استقبال كثير من الملتحقين بحلقات ومعاهد وكليات التعليم الديني وخريجيها لمثل هذه المعاني التي تحض على

(١) الدر المنثور (١/ ٢١٤)، وتفسير ابن أبي حاتم (١/ ١٧٠ برقم:٨٩٣).
(٢) تفسير الطبري (٢/ ٣٢٧) تحقيق شاكر.

الاستمساك الصحيح بالقرآن والتعامل معه من خلال باب واحد فقط ألا وهو الباب المؤدي للانتفاع بوظيفته المتفردة، وتحصيل الهداية الكاملة، والعلم النافع، والشفاء التام، والتغيير الإيجابي الشامل.

.. نعم، قد يَقبل من الناحية النظرية هذا الطرح وأمثاله، لكن عند التطبيق ستجده -في الغالب- لا يُقبل على القرآن بنفسية متلهفة متشوقة لتحصيل جوانب تلك الوظيفة المتفردة للقرآن؛ لأنه متشبع وممتلئ بما حصله في مشوار دراسته وقراءاته.

ومن باب الإنصاف فهناك بين هؤلاء من احتفظ بالقابلية للتلقي بنفسية الأمي -بدرجة كبيرة- لذلك تجد حرصه على الانتفاع الحقيقي بالقرآن والإقبال عليه بشغف، ولهفة.

ليسوا سواءً:

يبين القرآن صعوبة استقبال أهل الكتاب وأصحاب العقائد والتصورات الراسخة آيات القرآن بنفسية الأمي التي تتشوق للمعرفة؛ لأنه لا يشعر بالاحتياج، ويرى الحق فيما يتبناه، بل ويُقيِّم غيره على أساسه، ومن الآيات التي تشير إلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ **وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ** ﴾ [البقرة: ١٤٥]. وقوله: ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا** ﴾ [البقرة: ٩١].

وغني عن البيان بأنه ليس المقصد من الاستدلال بهذه الآيات التي تتحدث عن اليهود أو النصارى أن نُسقطها على أهل التعليم الديني ومن حذا حذوهم، بل المقصد هو ذكر أمثلة لامتلاء العقول بأفكارٍ ومعانٍ راسخة جعلت أصحابها لا يقبلون على القرآن بتلهف وشغف، ومع ذلك فالأمر ليس على إطلاقه فمنهم

-بلاشك- من يقبل عليه بنفسية المتلهف الشغوف للمعرفة، ولقد ذكر القرآن أمثلة لأناس من أهل الكتاب كانوا يستقبلون آياته بما ينبغي أن تُستقبل، ويتفاعلون معها التفاعل الصحيح كنصارى نجران:

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (٨٤) ﴾ [المائدة: ٨٣،٨٤].

وكذلك في قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣) أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٥٤) وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (٥٥) ﴾ [القصص: ٥٢ - ٥٥].

عقوبة الحرمان:

إن الإيمان الحق بالقرآن، والدخول عليه بنفسية الأمي -الشغوف للمعرفة والتغيير- لمن أهم العوامل التي تساعدنا -بإذن الله- على الانتفاع الحقيقي به، مع ضرورة الأخذ في الاعتبار أن النجاح -بعون الله- في الانتفاع بالقرآن يحتاج كذلك إلى رفع العقوبات الإلهية المضروبة على قلوبنا، فالتعاملات الخاطئة مع القرآن على مر الأجيال حتى وقتنا هذا قد أدت إلى استدعاء كثير من تلك العقوبات، فالله عَزَّوَجَلَّ يغار على كتابه وأعظم معجزاته التي أنزلها للبشر..

وحين استهان به المسلمون حرمهم -سبحانه- من أثره العظيم وروحه المزلزلة، وضرب على قلوبهم حاجزًا وحجابًا يحول بينها وبين ولوج نور القرآن إليها، وصاحب ذلك تخفيف قدره وفتح سُتُر هيبته في قلوبهم، مما أدى إلى عدم تقديره من قبل المسلمين كما ينبغي أن يكون؛ بل أصبحت الكتب الأخرى تسبقه في التقدير والانبهار، ويتجلى ذلك في قدر التلهف الذي يصحب تناول هذه الكتب إذا ما قورن بما يكون عليه الحال حين الإقبال على القرآن.

.. ومن العقوبات الربانية كذلك حرمان القلوب من روح القرآن؛ مما أدى إلى غياب أثر معجزته الفذ عليها، تلك المعجزة العظيمة التي وصف الله عَزَّوَجَلَّ شيئًا من أثرها في قوله: ﴿ **لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ** ﴾ [الحشر: ٢١]. وقوله: ﴿ **وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ** ﴾ [الرعد: ٣١]. وجواب الشرط محذوف وتقديره: لكان هذا القرآن.

فإن لم تصدق بهذا، ولا ترى أن هناك حرمانًا من القرآن وأثره وروحه، فما عليك إلا أن تسأل نفسك: هل تشعر حين تقرأ القرآن أنه قول ثقيل كما وصفه الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ **إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا** ﴿٥﴾ ﴾ [المزمل: ٥].؟!

وأين نحن من قوله تعالى: ﴿ **ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ** ﴾ [الزمر: ٢٣].

نعم.. نحن محرومون:

لقد تعامل الجيل الأول مع القرآن بما ينبغي أن يكون التعامل، واستمسكوا به وتجردوا وانقطعوا له، ودخلوا عليه من بابه الصحيح كمصدر متفرد لتحصيل

الهداية الشاملة والشفاء التام والعلم النافع والتغيير المتكامل؛ فأحسن القرآن وفادتهم فصاروا من بعده قومًا ربانيين صالحين مصلحين، وحقق الله لهم وعده، فأورثهم الأرض في سنوات معدودة.

.. لكن المسلمين بعد الجيل الأول لم يفعلوا ذلك مع القرآن، ولم يتعاملوا معه بتجرد، ففي البداية: خلطوه بغيره حتى صار من الناحية الموضوعية مصدرًا من مصادر تحصيل الهداية والشفاء والتغيير، ثم هبطت مكانته في القلوب وتراجع دوره شيئًا فشيئًا.. فما كان من القرآن إلا أن عز على المسلمين أكثر وأكثر، فامتنع نوره وشفاؤه وروحه عن الوصول إلى قلوبهم، وفي الوقت ذاته لم يحرمهم من التعامل مع ألفاظه.. فكانت تلك العقوبة من أشد العقوبات قسوة، وكيف لا وصاحبها -وما أبرئ نفسي- يشعر بأنه يتأثر بالقرآن ويهتم به ويخدمه، ومع ذلك فهو بالفعل محروم من أعظم وظائفه، ألا وهي تحصيل الهداية والشفاء والتغيير والقرب من الله.. وصار القرآن على لسانه «قولًا خفيفًا» ورُفعت روحه عن ألفاظه، وضُرب الحجاب على قلبه.

.. ترى الواحد منا لا يشعر بأنه محروم، ولا يدرك أن قلبه محجوب عن القرآن، بل قد يرى نفسه أنه من أهله، وينصح الآخرين بأن يحذو حذوه، ولا يمل بعضنا من الحديث عن فضل الانشغال بالقرآن -كما يفعل- فهو يختم القرآن في أيام معدودات، ويتلو الجزء الواحد في وقت يسير..

ولقد تنبأ رسول الله ﷺ بظهور مثل هذه النماذج حين قال:

«سَيَخْرُجُ أَقْوَامٌ مِنْ أُمَّتِي يَشْرَبُونَ الْقُرْآنَ كَشُرْبِهِمُ اللَّبَنَ»[١].

قال المناوي: أي يسلقونه بألسنتهم من غير تدبر لمعانيه، ولا تأمل في أحكامه، بل يمر على ألسنتهم كما يمر اللبن المشروب عليها بسرعة[٢].

وقال ﷺ: **«سَيَخْرُجُ قَوْمٌ مِنْ أُمَّتِي يَشْرَبُونَ الْقُرْآنَ كَشُرْبِهِمُ الْمَاءَ»**[٣].

وكان معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «الله حكم قسط، هلك المرتابون، إن من ورائكم فتنًا يكثر فيها المال، ويُفتح فيها القرآن حتى يأخذه المؤمن والمنافق، والرجل، والمرأة، والصغير، والكبير، والعبد، والحر»[٤].

وقال: «سيبلى القرآن في صدور أقوام كما يبلى الثوب، فيتهافت، يقرؤونه لا يجدون له شهوة ولا لذة»[٥].

وقال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنكم ستجدون أقوامًا يزعمون أنهم يدعون إلى كتاب الله وقد نبذوه وراء ظهورهم..»[٦].

ويقول عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «كنا صدر هذه الأمة وكان الرجل من خيار أصحاب رسول الله ﷺ ما معه إلا السورة من القرآن أو شبه ذلك، وكان القرآن

---

(١) رواه الطبراني (١٧/ ٢٩٧).

(٢) فيض القدير (٤/ ١٥٥).

(٣) فضائل القرآن للفريابي (ص: ٢٠٣ برقم: ١٠٩).

(٤) جزء من كلام معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رواه أبو داود (٤/ ٢٠٢ برقم: ٤٦١١).

(٥) رواه الدارمي (٤/ ٢١٠٧ برقم: ٣٣٨٩) عن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ موقوفًا.

(٦) سنن الدارامي (١/ ٢٥١ برقم:١٤٥).

ثقيلًا عليهم ورُزقوا العمل به، وإن آخر هذه الأمة يخفف عليهم القرآن حتى يقرأه الصبي والأعجمي فلا يعملون به»[(١)].

ونكرر بأن المقصد من تخفيف القرآن: هو تخفيف قدره لدى المرء، ونزع مهابته من صدره، فيتحول من كونه كلامًا ثقيلًا إلى قول خفيف، فيُقرأ كأي كلام آخر.. بل أقل.. فتجده يدخل إليه وهو غير عابئ أو مهتم بالانتفاع الحقيقي به، وغير مستشعر حاجته إليه، فيستدعي بذلك عقوبة جديدة بأن يُفتح له القرآن أكثر، فتنساب ألفاظه سريعًا على لسانه فيُخدع بذلك ويظنه دلالة على صحة تعامله مع القرآن، وأنه من أهله، فيزداد حماسة نحو الاستمرار في هذا النهج.. بل يزيد.. وهكذا!!

قال أبو عبد الرحمن السلمي: «إنما أخذنا القرآن عن قوم أخبرونا أنهم كانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يجاوزوهن إلى العشر الأُخر حتى يعلموا ما فيهن من العمل قال: فتعلمنا العلم والعمل جميعًا، وأنه سيرث القرآن بعدنا قوم يشربونه شرب الماء لا يجاوز هذا، وأشار بيده إلى حنكه»[(٢)].

الممارسات الخاطئة مع القرآن:

قال تعالى: ﴿ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ٧٩ ﴾ [آل عمران: ٧٩].

---

(١) أخلاق حملة القرآن للآجري (ص٩٨ برقم: ٣٢).

(٢) فضائل القرآن للفريابي (ص: ٢٤١ برقم: ١٦٩)، وفضائل القرآن للرازي (ص: ١٢٧ برقم: ٩٧)، والبدع لابن وضاح (٢/ ١٧٠ برقم:٢٥٥).

فلئن كان الطريق إلى الربانية وعودة المجد لأمة الإسلام يستلزم الاستمساك بالقرآن؛ فإن تحقيق ذلك على النحو الصحيح ينبغي أن يبدأ بالعمل على رفع العقوبات التي أجراها الله علينا بالحرمان من أثر القرآن وقوله الثقيل ونوره المبين وروحه وهيبته في قلوبنا.

معنى ذلك أنه من الضروري إعادة النظر في كل ما نفعله مع القرآن، وأن نتعرف على الممارسات الخاطئة التي نمارسها معه ومدى خطورتها، ونعزم عزمة صادقة على التوقف عنها، والبدء الصحيح في رحلة العودة إليه..

وبفضل الله تم الحديث بشيء من التفصيل عن هذه الممارسات في كتاب «غربة القرآن»، فلنرجع إليه ونتعرف عليها[١].. وهي بإجمال:

- الجفاء عن القرآن.
- التوجه الدائم نحو الكتب قبل القرآن.
- الإسراع في حفظ حروفه دون العمل به.
- تشغيل الآلات الحديثة التي تبث آياته دون إنصات لها.
- الإسراع في قراءة آياته دون تفكُّر، والقراءة في أماكن الصخب واللغو.
- الاهتمام بإقامة حروفه دون العمل به.
- قراءته بالألحان المحدثة.

---

(١) بفضل الله الكتاب متوفر للسماع والقراءة والتحميل على الموقع الإلكتروني *www.alemanawalan.com*

وغير ذلك من الممارسات التي لا تصح أبدًا مع عظم شأن القرآن، ولا تخدم الهدف من نزوله، بل تؤدي إلى زيادة سمك الحاجز والحجاب الذي بيننا وبينه؛ ومن ثم يزداد تخفيفًا على الألسنة، وفتحًا لستر جلاله وهيبته في قلوبنا..

والجدير بالذكر أن ترك هذه الممارسات الخاطئة لا يعني العودة التلقائية الصحيحة إلى القرآن، بل هي خطوة أولية لازمة تهدف -بإذن الله- إلى إيقاف الابتعاد عنه، ومن الضروري أن تتبعها خطوات جادة للبدء في رحلة العودة إليه -بإذن الله- ومن أهم تلك الخطوات التعرف على الممارسات المختلطة وتصحيح مسارها نحو الاتجاه الصحيح في رحلة عودتنا إلى القرآن..

الممارسات المختلطة:

من الأهمية بمكان أن نعيد النظر كذلك في الممارسات المختلطة مع القرآن التي تمتزج فيها بعض وسائل التعامل الصحيح مع غيرها من الممارسات الخاطئة، فيختلط الأمر على صاحبها، فهو يرى -بقيامه بها- أنه يسير في الاتجاه السليم مع القرآن، ويشعر بالرضى عما يفعله معه؛ فتتحول تلك الممارسات المختلطة إلى ما يشبه المخدر الذي يصرف صاحبه عن الشعور بالمشكلة الحقيقية مع القرآن، والتألم لوجودها، ومن شأنها كذلك أن تشكل لديه أسوارًا عالية تحول بينه وبين رؤيته لتلك المشكلة؛ ومن ثم لا يشعر بالحاجة إلى تغيير طريقة تعامله مع القرآن والعودة الصحيحة إليه، وأن مثل هذا الكلام ليس موجهًا إليه لأنه بالفعل يسير في طريق العودة إليه؛ فتكون النتيجة مراوحة صاحبها في مكانه -إن لم يعد للوراء.

وكما أسلفنا؛ فإن هذه الممارسات المختلطة ليست كالممارسات الخاطئة، بل هي ممارسات فيها خير، لكنها لا تسير بصاحبها نحو تحقيق الاستمساك الصحيح بالقرآن.. والله أعلم.

وهذه عناوين لأهم هذه الممارسات، وهي ليست على سبيل الحصر:

- قَصْر مفهوم التدبر على الفهم وإعمال العقل.
- البدء في حفظ القرآن بتمهل قبل الدخول من بابه الصحيح.
- الإقبال على القرآن مع عدم التجرد له.
- اختلاط الأهداف في التعامل مع القرآن.
- طلب الهداية من القرآن باعتباره أحد مصادرها المتنوعة.
- الاكتفاء بتحصيل شيء يسير من هداية القرآن.

.. إن خطورة الممارسات المختلطة تكمن في كونها تصرف القارئ عن الباب الرئيس والوحيد للاستمساك الصحيح بالقرآن وتفتح له أبوابًا جانبية تشعره بالارتياح لما يقوم به، وتفقده الحماسة والرغبة في تصحيح علاقته بالقرآن والعودة الصحيحة إليه[١].

من وسائل الانتفاع بالقرآن:

بالتوازي مع العمل على زيادة الإيمان بالقرآن، والاجتهاد في التلبس بنفسية

---

(١) بفضل الله تم بيان هذه الممارسات في كتاب «الطريق الوحيد»، وبإذن الله قريبًا سيكون متاحًا على موقع: *www.alemanawalan.com*

الأمي، والتوقف عن الممارسات الخاطئة، وتصحيح مسار الممارسات المختلطة معه؛ علينا أن نبدأ بداية جديدة في تلاوتنا للقرآن نلتزم فيها بالوسائل التي تهيئنا وتمهد لنا -بإذن الله- طريق العودة إليه.

ومن هذه الوسائل:

- دعاء الله بتضرع أن يرفع الحُجب بيننا وبين القرآن، وأن يسمح لنور القرآن بغزو قلوبنا ولروحه أن تمسها، وأن يعود للقرآن هيبته وثقله وأثره المزلزل.
- تصحيح النطق بالآيات، وتعلم أحكام التلاوة دون تكلف أو إفراط.
- طول المكث مع القرآن، والانشغال به، وإفراد أكبر قدر ممكن من الوقت للقائه، مع المداومة اليومية على ذلك.
- تهيئة الجو المناسب للقائه: بألا تكون التلاوة في وقت غلبة الإجهاد والتعب، وأن يسبقها الوضوء والسواك، وتكون في مكان هادئ بعيد عن الصخب.
- القراءة الهادئة المترسلة المرتلة.
- التفكر في الآيات بصورة إجمالية، والتوقف عند المواضع التي تحمل معاني جديدة والنظر فيها دون إطالة.
- التجاوب مع الخطاب القرآني بالإجابة عن أسئلته، والشهادة في مواضع الإشهاد، والتسبيح عند الحديث عن الله وأسمائه الحسنى، والحمد عند ذكر نعمه، والتعوذ من النار عند ذكرها، وسؤال الجنة عند الحديث عنها،

وغير ذلك من صور التجاوب مع الآيات.

- ترديد الآيات التي تؤثر في المشاعر وتستحوذ عليها، ودعاء الله حينها بما يتناسب مع ما تتضمنه.
- استصحاب معنى إيماني في كل ختمة: فكلما استصحب المرء معنى إيمانيًا وتعرف عليه من خلال رحلته مع سور وآيات القرآن بدءًا من سورة الفاتحة حتى سورة الناس؛ فإن ذلك من شأنه زيادة إيمانه بهذا المعنى، وتأثره الواضح به، وربطه بأحداث ومجريات حياته بتلقائية[1].

(١) بفضل الله هناك أمثلة لهذه المعاني في كتاب «بناء الإيمان من خلال القرآن» ومتاح للتحميل من موقع: *www.alemanawalan.com*

الفصل الخامس

طريق الربَّانية

- المحور الأول: مع الله.
- الصلاة.
- الفكر والذكر.
- طريقة التفكر في الأسماء والصفات.
- التفكر في آيات الله الكونية.
- المحور الثاني: مع الناس.
- معنى الإحسان وفضله وأهميته وصوره.

طريق الربَّانية

ينظِّم الإسلام علاقة الفرد بربه وبمن حوله كذلك، فهو دين الفطرة الذي يلبي جميع احتياجات الروح والبدن، ويجعل كل من يلتزم به يشعر بالسعادة والراحة والسلام الداخلي.. إنه الرحمة المهداة من رب العالمين قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧ ﴾ [الأنبياء:١٠٧].

ولكي يقطف المسلم ثمار السعادة في الدنيا والآخرة لا بد له من الالتزام بالمحاور التي ينبني عليها الدين والسير فيها. فمن يكن جل همه التفرغ لعبادة الله عَزَّوَجَلَّ، تاركًا الناس ومُعرضًا عن تلبية احتياجاتهم، فلن يقطف تلك الثمار بصورة كاملة، تمامًا كمن يتفرغ لخدمة الناس تاركًا قلبه دون غذاء وتعهد وإمداد مستمر.

فلا بد إِذن من التحرك في كلا الاتجاهين معًا، وهذا ما نجده كثيرًا في القرآن؛ حيث الربط بين التقوى عنوانًا ورمزًا لعلاقة القلب بالله، والإِحسان مظلةً تظلل علاقة المسلم بالناس.. قال تعالى:

﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمۡ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٧ ﴾ [الحج:٣٧].

﴿ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ١٧٢ ﴾ [آل عمران:١٧٢].

وفي آية البرِّ جمع القرآن بين خصال التقوى وخصال الإِحسان لتكون مقياسًا، يمكننا من خلاله تقويم حركتنا وإِعادتها إلى حالة الاتزان.. قال تعالى:

﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ [البقرة:١٧٧].

إن سيرنا في كلا الاتجاهين معًا من شأنه أن يرفع قلوبنا إِلى السماء ويربطها ربطًا قويًّا محكمًا بحبل الله المتين؛ كما قال تعالى:

﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾ [لقمان:٢٢].

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النساء: ١٢٥].

وعندما يمن الله عَزَّوَجَلَّ علينا بدخول النور إلى قلوبنا وبدء سيرها إليه سبحانه سنجد أمامنا عقبة كؤودًا تحول بيننا وبين القرب من الله عَزَّوَجَلَّ، لا بديل عن اجتيازها إِن أردنا مواصلة السير.

.. هذه العقبة هي النفس وما جبلت عليه من حب للراحة وكراهية القيام بالتكاليف، والولع بالحصول على الشهوات، والطريق إلى اجتيازها يبدأ بجهادها

على تنفيذ أوامر الله عَزَّوَجَلَّ خلافًا لما تهوى وإِلزامها الصدق والإِخلاص فيما نقوم به من أعمال وقربات.

فالطريق إلى الربانية إذن يمر من خلال ثلاثة محاور:

المحور الأول: مع الله:

والمستهدف من ورائه.. تحقيق الاستسلام التام له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

المحور الثاني: مع الناس:

والمستهدف من ورائه.. تحقيق الإِحسان في التعامل معهم.

المحور الثالث: مع النفس:

والمستهدف من ورائه دوام الحذر منها وجهادها على لزوم طاعة الله بصدق وإخلاص والصبر على ذلك.

ومما يجدر التأكيد عليه أن القرآن ينبغي أن يصبغ ويظلل هذه المحاور الثلاثة، وأن يكون بمثابة النبع الصافي المغذي لها حتى تؤتي أكلها بإذن ربها، فالقرآن -كما أسلفنا- هو المصدر المتفرد لتحصيل الهداية التامة والعلم النافع والشفاء التام والربانية؛ ومن ثم التغيير المتكامل.

ولقد جمع القرآن بين هذه المحاور في بعض مواضعه، مثل قوله تعالى على لسان نبيه يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ:

﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [يوسف: ٩٠].

وقوله تعالى في نهاية سورة النحل: ﴿ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [النحل:١٢٧، ١٢٨].

... وفي هذا الفصل والذي بعده سيكون الحديث بمشيئة الله وعونه عن الوسائل العملية لتحقيق الربانية من خلال المحاور الثلاثة..

تذكر:

لئن كانت الصفحات القادمة ستتناول -بإذن الله- الحديث عن المحاور الثلاثة لتحقيق الربانية بشئ من التفصيل، فهي بالأساس ينبغي أن تتغذى بصورة دائمة من نبع القرآن شريطة أن يتلقاه المرء صافيًا، فلا يخلطه بغيره، وكذلك أن يتجرد له وينشغل به، ويصرف الهم نحوه.

بمعنى أن الحديث عن الوسائل العملية للمحاور الثلاثة والحث على القيام بها لاينبغي أن يصرفنا عن قضيتنا الأولى وهي السعي الحثيث نحو العودة إلى القرآن والاستمساك الصحيح التام به..

المحور الأول:

مع اللّه

القارئ للقرآن المقبل عليه بنفسية الأمي المتشوق للتغيير وتحقيق الربانية، والمندفع إليه بشعور التلقي للتنفيذ سيجد فيه العديد من الوسائل العملية التي تعينه على تقوية صلته بالله عَزَّوَجَلَّ، ودوام السير إليه والاقتراب منه، والقرآن -كعادته- يكرر الحديث عن هذه الوسائل في كثير من المواضع لتكون دائمًا موضع نظر القارئ فيدوم تذكره لها، ويزداد تشميره للقيام بها.

.. إن وسائل القرب من الله عَزَّوَجَلَّ عديدة، فالطاعات كلها أنوار، ولكن تظل هناك وسيلتان محوريتان تقويان علاقة العبد بربه، الأولى: الصلاة، والثانية: الفكر والذكر.

أولًا: الصلاة:

قال تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤ ﴾ [طه:١٤]. فالصلاة هي وسيلة الاتصال بالله عَزَّوَجَلَّ والاقتراب الدائم منه: ﴿ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ﴾ [العلق: ١٩].

نعم جميع الطاعات تُقرِّب إلى الله، ولكن تظل الصلاة أهمها على الإِطلاق، ولِمَ لا وهي محل المناجاة واستفراغ معاني العبودية لله عَزَّوَجَلَّ، بل إن تلاوة القرآن في الصلاة تفضل قراءته خارج الصلاة، إِنها كما قال رسول الله ﷺ: «**خَيْرُ مَوْضُوعٍ،**

فَمَنِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَسْتَكْثِرَ فَلْيَسْتَكْثِرْ»[١] من خلالها نقرع باب الملك، فنُظهر له ذلنا وانكسارنا وخضوعنا له.

إنها إعلان لعبوديتنا له سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فالسجود على سبيل المثال بمعناه الحقيقي يمثل أقرب وضع يمكن أن يُظهر فيه العبد عبوديته التامة لربه وصغاره بين يديه؛ لذلك كان العبد وهو في سجوده أقرب ما يكون من ربه.

عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ، فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ**»[٢].

ولقد فرض الله علينا الصلوات الخمس حدًّا أدنى للاتصال به سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ والتخلص من آثار الدنيا التي قد علقت في قلوبنا.

عن أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ لِلَّهِ مَلَكًا يُنَادِي كُلَّ صَلَاةٍ: يَا بَنِي آدَمَ قُومُوا إِلَى نِيرَانِكُمْ الَّتِي أَوْقَدْتُمُوهَا فَأَطْفِئُوهَا**»[٣].

فلنحرص على تهيئة القلب قبل الدخول فيها بإسباغ الوضوء والتبكير في الذهاب إلى المسجد، وإنهاء أي معلَّق يشغل البال، قال ﷺ: «**لَا صَلَاةَ بِحَضْرَةِ الطَّعَامِ، وَلَا وَهُوَ يُدَافِعُهُ الْأَخْبَثَانِ**»[٤].

قال **أبو الدرداء**: إِن من فقه المرء إِقباله على حاجته حتى يقبل على صلاته

(١) رواه الطبراني في الأوسط (١/ ٨٤).
(٢) رواه مسلم (١/ ٣٥٠ برقم: ٤٨٢).
(٣) رواه الطبراني في الأوسط (٩/ ١٧٣).
(٤) رواه مسلم عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا (١/ ٣٩٣ برقم: ٥٦٠).

وقلبه فارغ[(١)]. ومع هذه الصلوات الخمس يبقي هناك وقت آخر لمن يريد القرب والوصال.. هذا الوقت هو الذي حدده المولى للقاء أحبائه.. هيأ فيه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الأرواح للاتصال بالملأ الأعلى والتخفف من جواذب الأرض والطين.

قال رسول الله ﷺ: «**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الرَّبُّ مِنَ الْعَبْدِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ الآخِرِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ مِمْنْ يَذْكُرِ اللهَ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ فَكُنْ**»[(٢)].

وإنها لفتة جديرة بالاهتمام أن يكون قيام الليل هو الوسيلة التربوية الأولى التي نزل بها القرآن على رسول الله ﷺ، وصحابته الكرام قبل أن تفرض الصوات الخمس، وقبل الزكاة والصيام، والجهاد وقبل تحريم الخمر والسفور.. لماذا؟!

لأن قيام الليل هو أعظم وسيلة لربط القلوب بالله، فإذا ما وُجد الاتصال والوصال كان تغيير الظاهر بعد ذلك أيسر ما يكون كما قال ﷺ: «..**أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**»[(٣)].

لا سَيْرَ إلى الله بدون قيام:

التفكر في القرآن وإطالة النظر فيه من شأنه أن يساعد على التأثر بالمعاني والمعارف الإلهية، فهي تعرفنا بالله عَزَّوَجَلَّ وبحقوقه علينا، ومع تكرار هذا التفكر تنتقل مدلولات هذه المعاني إلى القلب فتورثه المهابة والمحبة والخوف والرجاء..

(١) الزهد لابن المبارك (ص ٤٠٢).

(٢) أخرجه الترمذي (٥/ ٥٦٩ برقم:٣٥٧٩) وقال: حسن صحيح غريب.

(٣) رواه البخاري (١/ ٢٠ برقم:٥٢)، ومسلم (٣/ ١٢١٩ برقم:١٥٩٩).

وبعد أن يمتلئ القلب بهذه المعارف: متى سيخرجها وكيف يعبر عنها؟!

لا بد إِذن من وسيلة تساعد العبد على التعبير عن تلك المعاني واستفراغ مدلولاتها من القلب.. ولا وسيلة أعظم من الصلاة.. وأفضل صلاة بعد المكتوبات قيام الليل.. فهو مركبة السائرين تقربهم وتدنيهم من حبيبهم ومولاهم: ﴿ **وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا** ﴾ [الإسراء:٧٩].

فلا ينبغي أن تفوتنا ليلة دون قيام حتى لا يتعثر سيرنا إلى مولانا، ويسبقنا إِليه غيرنا..

كانت **امرأة أبي محمد حبيب الفارسي**، توقظه بالليل وتقول: قم يا حبيب فإِن الطريق بعيد، وزادنا قليل، وقوافل الصالحين قد سارت من بين أيدينا ونحن بقينا[١].

قيام الليل وقود الدعوة:

من التصورات الخاطئة التي يتصورها البعض أن كثرة المشاغل والأعباء الدعوية والدنيوية تستدعي منه راحة طويلة بالليل، فيقضي ليله نائمًا لا يستيقظ إِلا على صلاة الفجر -إِذا استيقظ-.. ولقد صحح القرآن هذا التصور ونبه على أن قيام الليل هو أفضل معين لتحمّل أعباء النهار بقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا** ﴾ [المزمل:٦، ٧].

فبالليل يتم زرع بذور الإِخلاص ليجني صاحبها ثمرتها بالنهار، فمن لم يلتحق بمدرسة الليل ويملأ ما نقص لديه كيف يتحرك بالنهار؟!

---

(١) صفة الصفوة (٤/ ٣٥)، مجموع رسائل ابن رجب (٤/ ٤٢١).

فلا بديل أمامنا عن قيام الليل مهما كانت شواغلنا التي لن تكون بأى حال من الأحوال أكثر من شواغل رسول الله ﷺ الذي ما ترك قيام الليل في حضر أو سفر.

لا بد من وقفة مع الله في السحر يرجع فيها المرء إلى أصله من ضعف وذل وجهل وفقر وعجز، ويتجلبب بجلباب العبودية والانكسار والمسكنة، يعيش فيها حال العبد الخائف من غضب مولاه الراجي رحمته، يسأله سؤال الفقير المسكين الذي لا يملك طعامه ولا شرابه ولا لباسه ولا هُداه، كما قال تعالى في الحديث القدسي: «**يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ.. يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمُكُمْ. يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسِكُمْ..**»(١).

وبالمداومة على قيام الليل يبدأ العبد استشعار لذة المناجاة، وإِقامة علاقة خاصة بينه وبين الله عَزَّوَجَلَّ. تلك العلاقة ستنمو شيئًا فشيئًا لتصبح أقوى من كل العلائق البشرية فيأنس بالله ويزداد شوقه إِلى الخلوة به ومناجاته.

فلنجاهد أنفسنا على مداومة الاستيقاظ قبل الفجر بوقت كافٍ حتى نصل إلى تلك الحالة التي تجعلنا ننتظر بشوق صوت دقات المنبه؛ فنهِبّ مسرعين إلى موعد لقاء الحبيب، فإِن صعب علينا الاستيقاظ في هذا الوقت -في البداية- فلنحافظ على تلك الصلاة وبتلك الكيفية قبل النوم.

ثانيًا: الفكر والذكر:

إِن معرفة الله عَزَّوَجَلَّ هي أسمى عقائد الإِسلام، وعلى قدرها تكون خشية المرء

---

(١) جزء من حديث رواه مسلم (٤/ ١٩٩٤ برقم: ٢٥٧٧).

لربه، قال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: يارب أى عبادك أخشى لك؟ قال: أعلمهم بي[١].

والطريق السهل الميسر الذي دلنا عليه القرآن لمعرفة الله عَزَّوَجَلَّ هو التفكر، قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

ففي هذه الآيات يحثنا الله عَزَّوَجَلَّ على النظر في ملكوت السماوات والأرض والتفكر في عظيم خلقه.. هذا التفكر عندما يقترن بالذكر فإِنه يحدث في القلب مزيدًا من الخشية والإِنابة: ﴿ سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾.

ولقد بكى رسول الله ﷺ عندما نزلت عليه هذه الآيات وقال لبلال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا»[٢].

فمن خلال التفكر الصحيح يعرف الإِنسان ربه، فيُعبِّر عن هذه المعرفة بكثرة ذكره - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - لذلك قال الحسن: تفكر ساعة خير من قيام ليلة.

وعندما سُئل أبو الدرداء: أفترى التفكر عملًا من الأعمال؟ قال: نعم، هو اليقين[٣].

فالهدف الأسمى للفكر هو معرفة الله عَزَّوَجَلَّ، فيورث ذلك في القلب خشية

---

(١) الزهد لابن المبارك (ص ٧٥).

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه (٢/ ٣٨٦ برقم: ٦٢٠).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ٢٠٠).

وخضوعًا واستسلامًا وحبًّا ورجاءً وتوكلًا عليه سبحانه.

فالتفكر إذن هو مفتاح المعرفة.. هذا التفكر يحتاج إلى عمل يرسخ في معانيه في القلب، وأنسب عمل لذلك هو ذكر الله..

فالذكر للقلب -كما يقول ابن تيمية- مثل الماء للسمك فكيف يكون حال السمك إِذا فارق الماء[(١)]؟!

فلا بد من ربط الذكر بالفكر، يقول ابن القيم: التفكر والتذكر يثمران أنواع المعارف، وحقائق الإِيمان والإِحسان، والعارف لا يزال يعود بتفكره على تذكره، وبتذكره على تفكره، حتى يفتح قفل قلبه بإِذن الفتاح العليم[(٢)].

فالذكر هو الترجمة العملية لما في القلب من معانٍ أورثها الفكر، وعلى قدرها يكون التفاعل بين القلب واللسان.. وهذا يفسر سر الشكوى التي نشكو دائمًا من عدم حضور القلب ومواطأته اللسان عند الذكر.

كيف نعرف الله؟!

يقول تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١] فلا يعرف الله إلا الله، كما يقول أبو حامد الغزالي. وهذا ما عناه سيد البشر عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عندما كان يقول في دعائه: «**لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ**»[(٣)] أي لا أحيط بمحامدك وصفات إِلهيتك وإِنما أنت المحيط بها وحدك.

---

(١) الوابل الصيب لابن القيم (ص ١٥).

(٢) تهذيب مدارج السالكين (ص ٢٣٧).

(٣) أخرجه مسلم (١/ ٣٥٢ برقم:٤٨٦).

وأما اتساع المعرفة فإِنما تكون في معرفة أسمائه وصفاته، وذلك باب مفتوح لجميع الخلق، وفيه تتفاوت مراتبه فليس من يعلم أنه تعالى عالم قادر -بصفة عامة- كمن شاهد عجائب آياته في ملكوت السماوات والأرض وخلق الأرواح والأجساد، واطلع على عجائب المملكة، وغرائب الصنعة ممعنًا في التفصيل، ومستقصيًا دقائق الحكمة ومستوفيًا لطائف التدبير..

ويضرب الإمام الغزالي -رَحِمَهُ اللَّهُ- مثالًا فيقول: الشافعي -رَحِمَهُ اللَّهُ- يعرفه بوّاب داره، ويعرفه تلميذه المزني.. فالبواب يعلم أنه عالم بالشرع ومصنف فيه، ويرشد خلق الله تعالى على الجملة، والمزني يعرفه معرفة محيطة بتفاصيل صفاته ومعلوماته... ولله المثل الأعلى.

.. وكذلك تفاوت الخلق في معرفة الله تعالى، فبقدر ما انكشف لهم من معلومات عن الله تعالى وعجائب مقدوراته وبدائع آياته تزداد معرفتهم به سبحانه[1].

من هنا تتقرر الحقيقة المهمة وهي أنه لا سبيل لمعرفة الله عَزَّوَجَلَّ إلا من خلال معرفة أسمائه وصفاته.. وطريق التعرف على أسماء الله وصفاته إِنما يكون من خلال تتبع شواهدها وآثارها في الكون.

يقول ابن القيم: إذا اعتبرت بالمخلوقات والمأمورات وجدتها بأسرها كلها دالة على الصفات، وحقائق الأسماء الحسنى.. ويكفي ظهور شاهد الصنع فيك خاصة كما قال تعالى: ﴿ **وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ** ﴾ [الذاريات:٢١].

---

(١) المقصد الأسني (٤٢،٤٣) بتصرف.

فالموجودات بأسرها شواهد صفات الرب جَلَّجَلَالُهُ ونعوته وأسمائه، فهي كلها تشير إلى الأسماء الحسنى وحقائقها، وتدل عليها، وتخبر بلسان الحال والنطق كما قيل:

تأمَّـل سـطورَ الكائنـاتِ فإنها مِن الملأ الأعلى إليك رسـائل
وقد خُطَّ فيها لـو تأملت خطَّها ألا كل شـيء خـلا اللـهَ باطل
تشـير بإِثبـات الصفـات لربِّها فصامِتُهـا يهدي ومَـن هو قائل

فلستَ ترى شيئًا أدل من دلالة المخلوقات على صفات خالقها ونعوت كماله وحقائق أسمائه، وقد تنوعت أدلتها بحسب تنوعها، فهي تدل عقلًا وحسًّا، وفطرة ونظرًا واعتبارًا[١]..

علاقة التفكر في الأسماء والصفات بالسير إلى الله:

السير إلى الله يكون بالقلب، وأسرع الناس سيرًا من امتلأ قلبه بالمعاني الإيمانية وترجمها بعبادات قلبية كالخوف والرجاء والحب والإخلاص والإنابة والتعظيم والتوكل والشكر والاستسلام لله عَزَّوَجَلَّ، وغاية السائرين تحصيل أكبر قدر من هذه الجوانب فتكون سببًا في قربهم من ربهم.

وقبل أن نتناول طريقة القرآن في تحصيل هذه المعاني الإيمانية القلبية.. هناك بعض المصطلحات المتعلقة بهذا الموضوع علينا أن نتفق على معناها.. ومن أهمها: **العلم والحال والعمل**.

---

(١) تهذيب مدارج السالكين (ص ٦٢٥، ٦٢٦).

يقول علماء التربية: إن العملية التربوية الناجحة والمؤثرة لا بد أن يتوافر لها ثلاثة جوانب: جانب معرفي، وجانب وجداني، وجانب سلوكي.

ويطلق العلماء على هذه الجوانب الثلاثة: «العلم والحال والعمل»... **فالعلم** النافع ينبغي أن يورث حالًا (الجانب الوجداني)، **والحال** الصحيح لا بد أن يثمر عملًا.

فعندما نستمع إلى موعظة من المواعظ فالاستماع هنا يمثل الجانب العلمي، والتأثر بها يمثل الجانب الوجداني (الحال)، فإذا أثمر ذلك الحال عملًا كمسارعة إلى الخيرات مثلًا يكون هذا العلم قد أتى بثماره الصحيحة.

ويمكن أن نعرّف الحال بأنه الانفعال الشعوري أو الحالة الشعورية التي يعيشها الفرد نتيجة ما يصل إلى عقله من معلومات، سواء أكانت مقروءة أم مسموعة أم مرئية.. وليس كل شيء يصل لعقل الإِنسان يؤثر في مشاعره وعواطفه، فحسب قوة المؤثر يكون الانفعال... والإِنسان -أي إِنسان- قد تتقلب أحواله الشعورية والعاطفية طوال يومه بين فرح وسرور وحزن وهم وطمأنينة.. حسب المواقف والمؤثرات التي يتعرض لها.

فالحال إِذن هو حلقة الوصل بين العلم والعمل، وعلى قدر تمكنه من القلب تكون قوة الرغبة للعمل المصاحب له.

فالعلم محله العقل، والحال أو المشاعر محلها القلب، أما العمل فيكون بالجوارح.

والطريق إلى استثارة المشاعر في اتجاه ما يريده الشخص سواء أكان ذلك لنفسه أم لغيره إِنما يكون بالعلم الذي يخدم هذا الاتجاه.

ومن البديهي أن تتنوَّع المشاعر التي يعيشها القلب بين فترة وأخرى بتنوع ما يصل إِليه من عقله ثمرةً لما حصله من علوم، أو ما مرَّ عليه من أحداث؛ لذلك كان من الأهمية بمكان التفكر في القرآن والذي يعد بمثابة البوابة لتأثر القلب وانفعاله بمشاعر مختلفة من الفرح والخوف والشوق والسكينة والاستبشار..

وكلما ازداد التأثر ازدادت الطاقة المتولدة داخل الإنسان، والتي من شأنها أن تدفع صاحبها للعمل بمقتضى ذلك التأثر.

ومن الموضوعات التي تحتل مساحة كبيرة في القرآن: أسماء الله وصفاته وآثارها في الكون والنفس، فالتفكر في هذا الموضوع يؤجج مشاعر كثيرة في القلب من شأنها أن تثمر أعمالًا تقرب إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فعلى سبيل المثال:

كثرة التفكر في صفات أسماء الله: «**القهار، القاهر، العزيز**»، وإِحصاء آثار تلك الصفات في الكون والنفس وربط الأحداث اليومية بها.... كل هذا من شأنه أن يورث في القلب حالًا من الذل والانكسار لله عَزَّوَجَلَّ.. فإِذا تمكن هذا الحال من القلب فإِن ثمرته المرجوة إِنما تكون بالاستسلام المطلق لله عَزَّوَجَلَّ في كل الأمور.

.. والتفكر في نعم الله علينا والعمل على عدها والتي من خلالها تظهر آثار صفات أسماء الله «**الوهاب، والبر، والمنان**»..، كل هذا من شأنه أن يورث حب الله عَزَّوَجَلَّ في القلب، ويدفع إلى العمل المصاحب لهذا الحال وهو الشكر، كما سيأتي بيانه فيما بعد.

.. والتفكر في صفات أسماء الله: «**الجبار، القوى، المتين**» وإِحصاء آثارها في الحياة اليومية وعلى مر الأزمان: يورث في القلب خوفًا وخشية من الله عَزَّوَجَلَّ تدفع

للورع والمسارعة في فعل الخيرات، واجتناب المحرمات.

والتفكر في لطف الله وآثار رحمته والتي من خلالها تظهر آثار صفات أسماء الله: «**الرحمن، الرحيم، الرؤوف**»..، يورث الرجاء في القلب وحسن الظن بالله عَزَّوَجَلَّ مما يدفع إلى التشمير والمبادرة إلى العمل.

والتفكر في صفات أسماء الله: «**الغني، المغني، القيوم**» وآثارها، تورث في القلب فقرًا إلى الله عَزَّوَجَلَّ، يدفع صاحبه إلى دوام الاستعانة به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وهكذا في بقية الصفات.

تجلِّيات الرب:

يؤكد ابن القيم في كتابه «الفوائد» على هذه الطريقة في معرفة الله عَزَّوَجَلَّ، فيقول:

«القرآن كلام الله وقد تجلَّى فيه لعباده بصفاته، فتارة يتجلَّى في جلباب الهيبة والعظمة والجلال، فتخضع الأعناق، وتنكسر النفوس، وتخشع الأصوات، ويذوب الكبر كما يذوب الملح في الماء، وتارة يتجلَّى في صفات الجمال والكمال، وهو كمال الأسماء وجمال الصفات وجمال الأفعال الدال على كمال الذات فيستنفد حُبه من قلب العبد قوة الحب كلها، بحسب ما عرفه من صفات جماله ونعوت كماله، فيصبح عبده فارغًا إِلا من محبته. فتبقي المحبة له طبعًا لا تكلفًا.

وإذا تجلَّى بصفات الرحمة، والبر، والعطف، والإحسان، انبعثت قوة الرجاء من العبد، وانبسط أمله، وقوي طمعه، وسار إلى ربه وحادي الرجاء يحدو ركاب سيره، وكلما قوي الرجاء جدّ في العمل.

وإذا تجلَّى بصفات العدل والانتقام والسخط والعقوبة، انقمعت النفس الأمارة، وبطلت، أو ضعفت قواها من الشهوة، واللهو، واللعب، والحرص على المحرمات، وانقبضت أعنة[1] رعوناتها، فأحضرت المطية حظها من الخوف والخشية والحذر.

وإذا تجلَّى بصفات الأمر والنهي والعهد والوصية وإرسال الرسل وإِنزال الكتب وشرع الشرائع؛ انبعثت منها قوة الامتثال والتنفيذ لأوامره، والتبليغ لها، والتواصي بها، وذكرها، والتصديق بالخبر، والامتثال للطلب، والاجتناب للنهي.

وإذا تجلَّى بصفات السمع والبصر والعلم، انبعثت من العبد قوة الحياء فيستحيي من ربه أن يراه على ما يكره، أو يسمع منه ما يكره، أو يخفي في سريرته ما يمقته عليه، فتبقى حركاته وأقواله وخواطره موزونة بميزان الشرع غير مهملة ولا مرسلة تحت حكم الطبيعة والهوى.

وإذا تجلَّى بصفات الكفاية والحسب والقيام بمصالح العباد وسوق أرزاقهم إِليهم، ودفع المصائب عنهم ونصره لأوليائه وحمايته لهم، ومعيته الخاصة لهم، انبعثت من العبد قوة التوكل عليه والتفويض إليه والرضا به، وبكل ما يجريه على عبده ويقيمه فيه مما يرضى هو سبحانه.

وإذا تجلَّى بصفات العز والكبرياء، أعطت نفسه المطمئنة ما وصلت إِليه من الذل لعظمته والانكسار لعزته، والخضوع لكبريائه، وخشوع القلب والجوارح له فتعلوه السكينة والوقار في قلبه ولسانه وجوارحه وسمته، ويذهب طيشه وقوته وحدّته....»[2].

(١) الأعنة: جمع عنان، وهو الذي تمسك به الدابة.

(٢) الفوائد لابن القيم (ص ٩١، ٩٢) باختصار.

طريقة التفكر في الأسماء والصفات

هناك وسيلتان رئيستان يمكننا من خلالهما التفكر في الأسماء والصفات:

الأولى: من خلال القرآن.

الثانية: من خلال آيات الله الكونية.

كيفية التفكر من خلال آيات القرآن:

من أهم سمات القرآن أنه كتاب تعريف بالله عَزَّوَجَلَّ، ففيه يعرفنا سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بنفسه وبأسمائه وصفاته، وآثارها الدالة عليه في الكون والنفس، فمن تتبع تلك الأسماء والصفات أحصى آثارها من خلال القرآن، وربطها بواقعه المحيط به، وعاش معها بكيانه فسيجني بمشيئة الله ثمارًا سريعة من شجرة المعرفة، وسيخطو خطوات واسعة في سيره إلى الله.

هذا الشكل من التفكر هو مستهدفنا الذي نرنو إلى تحقيقه في يوم من الأيام؛ حيث نقرأ الآيات فنتفاعل معها، وتتقلب مشاعرنا بتغير الخطاب القرآني فيها ما بين خوف ورجاء ورغبة ورهبة وسكينة.... إلخ. كل ذلك يحدث -بإذن الله- مع كل جلسة نجلسها مع القرآن، ولكي نصل إلى هذه الحالة: من المناسب اتباع طريقة متدرجة تغرس في القلب جوانب العبودية لله عَزَّوَجَلَّ شيئًا فشيئًا، وذلك من خلال البحث في القرآن عن صفة أو صفات يربطها معنى واحد كالعزة أو الرحمة، ونُحصي آثار تلك الصفة من القرآن والتطبيقات العملية لها على مر العصور السابقة؛ مما

سيؤدي إلى توجه مشاعرنا تجاه ما تقتضيه تلك الصفة كالحب أو الخوف أو الشعور بالفقر والاحتياج لله عَزَّوَجَلَّ، وعلى قدر تمكن الشعور من القلب تكون قوة الدافع للعمل المصاحب له بإذن الله...

إن الأفضل لنا -ونحن في بداية طريقنا إلى الله- أن نبدأ بهذه الطريقة، فنتعلم من خلالها الإِيمان ونغرس قواعده في قلوبنا لتزداد جوانب العبودية فيه بصورة متدرجة، إِلى أن نتمكن من تعبيد القلب لله عَزَّوَجَلَّ وإِخضاع مشاعره وتوجيهها نحو خالقها، وعندها سيسهل استثارتها بأدنى مؤثر يُذكِّر بالله.

فإن قال قائل: ولكن أسماء الله كثيرة فهل سنقوم بالتعامل معها واحدة واحدة؟!

.. نعم إن أسماء الله الحسنى كثيرة، ولو اتبعنا هذه الطريقة فسيطول بنا الزمن دون أن نتتهي منها، ومن ناحية أخرى فإنه من الصعب علينا ونحن في البداية أن نجد آثارًا لكل الأسماء والصفات في القرآن وبالقدر الذي يحدث الأثر المطلوب في القلب؛ لذلك من المناسب -والله أعلم- أن نبدأ بالأسماء والصفات التي أفاض القرآن في وصفها وبيان آثارها، والتي لها كذلك مظاهر يمكن رصدها في واقعنا، ومنها:

- الأسماء والصفات التي يجمعها معنى الفضل والإِحسان: كالوهاب والمنان والرزاق والبر.
- الأسماء والصفات التي يجمعها معنى الرحمة واللطف: كالرحمن والرحيم والرؤوف واللطيف.
- الأسماء والصفات التي يجمعها معنى العزة: كالعزيز والقهار والقاهر.

- الأسماء والصفات التي يجمعها معنى العدل والانتقام: كالقوي والمتين والجبار.
- الأسماء والصفات التي يجمعها معنى الاستغناء: كالغني.
- الأسماء والصفات التي يجمعها معنى القدرة: كالقدير والقادر والمقتدر.
- الأسماء والصفات التي يجمعها معنى الخلق: كالخالق والبارئ والمصور.
- الأسماء والصفات التي يجمعها معنى الحكمة: كالحكيم.

وحبذا لو خصصنا ختمة كاملة للقرآن أو جزءًا كبيرًا منها لكل مجموعة من الأسماء والصفات التي يجمعها -إلى حد ما- أصل واحد.. فإذا ما أردنا أن نرسخ عبودية تلك الصفات في القلب، فعلينا أن نتتبع مظاهرها وآثارها في واقعنا، فنربط النعم بصفات الفضل والإحسان، ومواضع القهر بصفات العزة، ومواضع العقوبة والخذلان بصفات العدل والانتقام، ومواضع اللطف بصفات الرحمة...

وأيضًا من الوسائل التي تزيد عبودية هذه الأسماء والصفات رسوخًا في القلب استصحاب ذكر مناسب لهذه العبودية طيلة فترة التفكر فيها، فلو كنا نتفكر في صفات الفضل والإحسان علينا بالإكثار من الحمد والتسبيح، وإذا تفكرنا في صفات الحكم العدل علينا بالمداومة على الاستغفار، وعند التفكر في صفات العزة علينا أن نكثر من ذكر: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير.

نموذج للتفكر:

التفكر في أسماء الله: الوهاب، المنان، البر، الرزاق، المعطي.

هذه الأسماء العظيمة يجمعها معنى واحد ألا هو: الفضل والإحسان.

والمتتبع لآثار هذه الصفات في القرآن يجدها تدور حول النعم التي أنعم الله بها على عباده، ولقد أفاض القرآن في ذكر تلك النعم من خلال جوانب عديدة.. ومن ذلك:

- نِعم الإيجاد: كقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النحل:٧٨].
- نِعم الإمداد: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾ [عبس:٢٤-٣٢].
- نِعم التسخير: كقوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الجاثية:١٣].
- نِعم الحفظ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾ [فاطر:٤١].
- نِعم الهداية: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ ﴾ [النور:٢١].
- نِعم الثبات: كقوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

- نِعم التيسير والتوفيق: كقوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الأنبياء:٧٣].

■ الحال المصاحب:

إذا ما تتبعنا نعم الله علينا بجوانبها المختلفة من خلال القرآن، واجتهدنا في إِحصائها على مستوانا الفردي، وداومنا على ذلك فترة من الزمن؛ فإِن هذا من شأنه أن يهيِّجَ مشاعر الحب في قلوبنا تجاه هذا الإِله الوهَّاب، المنَّان، البَّر.....، ويدفعنا كذلك إلى العمل على شكره وكثرة حمده والثناء عليه.

■ نموذج آخر:

التفكر في أسماء الله: العزيز، القهار، القاهر.

هذه الأسماء الحسنى يجمعها صفة عزة القهر والغلبة لكل الكائنات، فجميع ما في الكون خاضع لله، منقاد لإِرادته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جميع نواصي المخلوقات بيده.. لا يتحرك منها متحرك، ولا يتصرف إلا بحوله وقوته وإِذنه، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فإِرادة الله الكونية غالبة.. لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه.. فعال لما يريد وغالب على أمره.

■ من آثار تلك الصفات[1]:

الجامع المشترك لآثار تلك الصفة أن العبد قد يريد شيئًا ما، ويريد الله شيئًا

(١) علينا أن ننتبه إلى أن آثار العزة والقهر الإلهي لعباده تدور حول الإِرادة الكونية فيما ليس للعبد فيه اختيار، أما الإِرادة الشرعية فالله عَزَّوَجَلَّ لا يجبر أحدًا على معصيته وإِلا لانتفت خاصية حرية الاختيار التي خص الله بها بني آدم.

آخر، فلا يحدث إلا ما أراده الله، وهذه أمثلة من القرآن على ذلك.

- الجنين: شكله، لونه، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ [آل عمران:٦].
- نوع المولود: ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الشورى:٤٩، ٥٠].
- رزق الإنسان: ﴿ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ [الشورى:١٢].
- السحاب: شكله ومساحته وهل سيمطر أم لا؟!: قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [النور:٤٣].
- نظام النمو: فالطفل ينمو فيصبح شابًا ثم شيخًا ثم يهرم ثم يموت، هذا النظام لم يستطع أحد من البشر إيقافه أو تغييره أو التمرد عليه: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾ [الروم:٥٤].
- الموت: فالكل لا يريد الموت ولكنه يموت: ﴿ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الواقعة:٨٦، ٨٧].

■ أمثلة من القرآن لآثار تلك الصفات:

١- ما حدث ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: قال تعالى: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [يوسف:٥٦].

٢- حمل السيدة سارة، زوجة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لإسحاق: ﴿ **قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ** ﴾ [هود:٧٢، ٧٣].

٣- إنجاب زوجة نبي الله زكريا ليحيى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: ﴿ **قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (٤٠)** ﴾ [آل عمران:٤٠].

٤- إنجاب مريم لعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولم يمسسها بشر: ﴿ **قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٤٧)** ﴾ [آل عمران:٤٧].

٥- أراد قوم إبراهيم إحراقه بالنار وأراد الله نجاته: ﴿ **قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (٧٠)** ﴾ [الأنبياء: ٦٨-٧٠].

٦- ما حدث في الهجرة: أراد المشركون منع الرسول ﷺ وأراد الله هجرته إلى يثرب:

﴿ **إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ**

سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [التوبة: ٤٠].

٧- ما حدث في بدر: المسلمون كانوا يريدون العير والله كان يريد المعركة ليُنزِل النصر على المؤمنين فماذا حدث؟ ﴿ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ ﴾ [الأنفال:٧].

٨- علم فرعون أنه سوف يُبعث رسول إلى بنى إِسرائيل يخلصهم من بطشه، فأراد التخلص منه، وذلك بذبح جيلٍ وترك جيلٍ ليخدمه... ولأن إرادة الله غالبة نجا موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ من الذبح بل وتربى في بيت فرعون.

■ **الحالة الشعورية المصاحبة:**

إن كثرة التفكر في هذه الأسماء والصفات من شأنها أن تستثير في القلب شعورًا بالذل والانكسار والعبودية لله عَزَّوَجَلَّ ويتمثل معنى قوله تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ ﴾ [الأعراف:١٨٨].

هذا الشعور سيدفع صاحبه إلى الاستسلام التام لله عَزَّوَجَلَّ، والإِذعان لأوامره.

ويزداد هذا الأمر رسوخًا إذا ما تتبع الواحد منا مظاهر هذه الصفات في واقعه وتفكر فيها مثل: الأرق، والنسيان، وغلبة النوم، و....إلخ.

ثانيًا: التفكر في آيات الله الكونية

وهي الوسيلة الرئيسة بعد القرآن للتفكر في أسماء الله تعالى وصفاته: ﴿ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [الجاثية:٣-٦].

فبعد السير بعض الخطوات في طريق التفكر في آثار الأسماء والصفات من خلال القرآن -والتي أشرنا إليها في الصفحات السابقة- علينا أن نبدأ في التفكر في آيات الله في الكون والنفس.. فكل ما في الكون يدل على الله تعالى.

وكل مخلوق من مخلوقات الله يمثل شهادة على وحدانيته، ويتجلى فيه بعض آثار أسمائه وصفاته قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْءَافَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت:٥٣].

يقول ابن القيم:

من نظر في الموجودات ببصيرة قلبه رآها كالأشخاص الشاهدة الناطقة بوحدانية الله وصفاته وصدق رسله، بل شهادتها أتم من شهادة الخبر المجرد؛ لأنها شهادة حال لا يقبل كذبًا، فلا يتأمل العاقل المستبصر مخلوقًا حق تأمله إلا وجده دالًّا على فاطره وبارئه، وعلى وحدانيته، وعلى كمال صفاته وأسمائه، وعلى صدق رسله

وعلى أن لقاءه لا ريب فيه، وهذه طريق القرآن في إِرشاد الخلق إلى الاستدلال بأصناف المخلوقات وأحوالها على إثبات الصانع وعلى التوحيد والمعاد والنبوات.. وأن ما يشاهدونه من مخلوقات شاهد بما أخبرت به رسله عنه من أسمائه وصفاته وتوحيده ولقائه، ووجود ملائكته، وهذا باب عظيم من أبواب الإيمان، وأشرف علم يناله العبد في هذه الدار.

ولقد أثنى الله تعالى على عباده المتفكرين في مخلوقاته بأنهم أوصلهم فكرهم فيها إلى شهادتهم بأنه تعالى لم يخلقهم باطلًا، وأنهم لما علموا ذلك وشهدوا به علموا أن خلقها يستلزم أمره ونهيه وثوابه وعقابه، فذكروا في دعائهم هذين الأمرين فقالوا: ﴿ **رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ** ﴿١٩١﴾ ﴾ [آل عمران:١٩١]. ثم ذكروا الإيمان الذي أوقعهم عليه فكرهم في خلق السماوات والأرض فقالوا: ﴿ **رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا** ﴾ [آل عمران:١٩٣]. فكانت ثمرة فكرهم في خلق السماوات والأرض الإقرار به تعالى وبواحدانيته وبدينه وبرسله وبثوابه وعقابه[١].

■ **ضرورة التفكر في آيات الله الكونية:**

كما أن القرآن هو كتاب الله المسطور، فإن الكون هو كتاب الله المنظور، وكل مخلوق من مخلوقات يعد بمثابة آية من آيات الله علينا أن نتفكر فيها ونصل من خلالها إلى معرفة الله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٢٦٣ – ٤٦٨) باختصار.

وكما أن الله تعالى ذم من لم يتدبر القرآن بقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد:٢٤]، فقد ذمَّ كذلك من أعرض عن التفكر في آيات الكون، قال تعالى: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الذاريات:٢٠، ٢١]، وقال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [يوسف:١٠٥].

نموذج للتفكر في آيات الله الكونية: يقول تعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [النحل:١٠، ١١].

فالماء آية من آيات الله.. علينا أن نتفكر فيها ونحصي الصفات التي أظهرها وجوده.

فوجود الماء دليل على وجود الله.. وعدم وجود بديل آخر يقوم بالدور الذي يقوم به الماء دليل على أن الخالق واحد..

أما نعم الله علينا في الماء فكثيرة فهو سر الحياة.. يروي ظمأنا، وتحيا به خلايانا، ولا قيام للنبات ولا للحيوان بدونه.. به ننظف أبداننا، ونصنع طعامنا.. وحين ينقص الماء يظهر مدى فقرنا إليه؛ ومن ثم فقرنا إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والماء دليل على أن الله حي قيوم، فالمطر ينزل بقَدر في أماكن محددة..

والماء دليل على قدرة الله، فبه تصبح الأرض مخضرة، ويذهب الظمأ، و... إلخ.

والماء دليل على أن الله سميع قريب، ففي بعض الأحيان يصلي الناس صلاة الاستسقاء، فلا يكادون يفرغون من صلاتهم حتى يجدون السماء تمطر، كما حدث ذلك في عهد الرسول ﷺ وعلى مر الأزمان من بعده.

ووجود الماء دليل على رحمة الله وحلمه.. فهو سبحانه قادر على منعه عن العصاة والكافرين، ولكنه يرحمهم ويمهلهم لعلهم يعودون إليه.

وفي الماء حكم بالغة تدل على أن خالقه حكيم..

وعندما يحدث الجفاف تظهر صفات المنتقم الجبار، وكذلك العزيز القهار، فنحن نريد المطر ولا ينزل، ونريد أن يتوقف ولا يتوقف.

وهكذا.... نجد الكثير من الصفات التي أظهرها وجود الماء.

■ **مثال آخر:**

ومن الأمثلة كذلك على كيفية التفكر في آيات الله: التفكر في الليل والنهار.

يقول تعالى: ﴿ **إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ٦** ﴾ [يونس:٦].

ولقد أظهر وجود الليل والنهار العديد من الصفات الإلهية، منها:

صفتا الحياة والقيومية، فهذا النظام الدقيق الذي يحكم توالي الليل والنهار واختلاف زمن كل منهما من يوم إلى آخر، ومن مكان إلى آخر، يحتاج إلى من يُقيمه، ويحافظ عليه في كل لحظة وطرفة عين.

ومما يظهره تتابع الليل والنهار صفتي المبدئ والمعيد، وكذلك صفة

الوحدانية، فلو كان هناك إله أو آلهة أخرى لنازعوا الله ملكه ولاختل نظام الليل والنهار، أو لذهب كل إله بما خلق..

ومن الصفات التي تظهرها هذه الآيات كذلك: صفات الرحمة والإحسان والرأفة بالناس، فلو استمر النهار دون مجيء الليل، لتعب الناس ولاضطربت نفوسهم كما قال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [القصص:٧٢].

ومن خلال تسخير الليل والنهار لخدمتنا وإمدادنا بالضياء والسكن نرى صفات المنعم، وكلما تفكرنا في المصالح المتحققة للناس من وجود الليل والنهار لتذكرنا صفة الحكمة. أما صفات العزة والقهر فيظهرها عدم قدرتنا على تغيير هذا النظام أو تعديله. وكلما تذكرنا حاجتنا إلى الليل والنهار وفقرنا إلى وجودهما ظهرت أمامنا أسماء وصفات الوهاب والمعطي والغني.

الرسائل الإلهية:

وقبل أن نختم الحديث حول الفكر والذكر تبقى وسيلة مهمة من وسائل التفكر علينا ألاّ نغفل عنها ونحن نسير إلى الله.. هذه الوسيلة نلمحها من قوله تعالى: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأنعام:٦٥].

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ ﴾ [الإسراء:٥٩].

فالله عَزَّوَجَلَّ يُرسل إلينا دومًا رسائل يذكرنا فيها بالكثير من أسمائه وصفاته، ويكشف لنا من خلالها حقيقة ضعفنا وعجزنا وفقرنا إليه.

ومن تلك الرسائل: العواصف والرعد والبرق والزلازل والحوادث وجدب

الأرض و....إلخ.

ومنها كذلك ما يصيب كل فرد على حدة: كالمرض والأرق والنسيان وضيق الصدر والقلق وعدم التوفيق و....إلخ.

فعلينا أن نعمل على قراءة تلك الرسائل ونتفكر فيما تحمله إلينا من معانٍ تذكرنا بقدرة الله وعزته ورحمته أو غضبه وانتقامه.

■ **نموذج للرسائل**:

من الرسائل التي تصل إلى أغلب الناس: رسالة المرض، فماذا تحمل تلك الرسالة؟!

المرض يظهر صفات العزة والقهر وأن إرادة الله غالبة، ويكشف مدى ضعفنا وعظيم فقرنا إلى الله عَزَّوَجَلَّ وفيه آثار لطف الله ورحمته؛ فبه نتطهر من الذنوب، وندرك قدر نعمة الصحة والعافية، ومن خلاله نوقن بأننا لا نملك لأنفسنا نفعًا ولا ضرًّا. وليست كل الرسائل تحمل نفس المعنى، فهناك رسائل تثبيت يثبت الله من خلالها القلوب، وهناك رسائل تبشير، وأخرى إنذار وتخويف، فالسعيد من أحسن قراءة تلك الرسائل وفهم المقصود من ورائها.

... وحبذا لو خصص كلٌّ منا وقتًا للتفكر في تلك الرسائل الإلهية التي ترد إليه يوميًّا في مشوار حياته، وعمل على ترجمتها والاستفادة منها.

■ **مثال للرسائل العامة**:

وهي الرسائل التي تصل إلى عدد كبير من الناس في نفس الوقت، مثل آية البرق، يقول تعالى: ﴿ **وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ**

مَآءً فَيُحۡيِۦ بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ ﴾ [الروم:٢٤].

فالبرق آية من آيات الله الكونية والتي تأتي كل فترة فتظهر بعضًا من صفات الله عَزَّوَجَلَّ، كصفات القوة والجبروت والقدرة والعزة، فتكشف للإنسان – أي إنسان – مدى ضعفه وعجزه وحجمه الحقيقي في الكون.. والبرق كذلك يحمل الأمل للناس، فهو من مقدمات نزول المطر وما فيه من مظاهر الرحمة الإلهية والفضل والإحسان؛ مما يبعث إلى قوة الرجاء في الله عَزَّوَجَلَّ، والطمع الدائم في رحمته.

فائدة:

تبقي نقطة أخيرة في هذا الموضوع وهي أنه ينبغي أن يسارع الواحد منا بترجمة الشعور الذي ينتابه عند التفكر في أسماء الله وصفاته بالذكر المناسب لتلك الحالة التي يعيشها، فعندما نستشعر تقصيرنا في جنب الله نشرع في الاستغفار، وحين تهيج علينا مشاعر الحب للمنعم: نحمد الله عَزَّوَجَلَّ ونسبحه، وعندما ينتابنا شعور بالعجز والفقر إليه سبحانه نكثر من ذكر: لا حول ولا قوة إلا بالله،... وهكذا مع بقية الأذكار.

ومن المناسب أن يحدد كل منا لنفسه وردًا يوميًّا من الذكر المطلق يلتزم به، ويحاول أن يجمع قلبه على معانيه ليحدث الأثر المطلوب.

قال الحسن البصري: إن أهل العقل لم يزالوا يعودون بالذكر على الفكر، وبالفكر على الذكر حتى استنطقوا القلوب فنطقت بالحكمة[1].

(١) إحياء علوم الدين (٥/ ٦).

المحور الثاني في الطريق إلى الربانية:

مع الناس

المتأمل في القرآن يجد الكثير من الآيات التي تحثنا على الإحسان في تعاملنا مع الآخرين، وتبشر صاحبه بعظيم المثوبة من الله عَزَّوَجَلَّ. قال تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ١٣٤ ﴾ [آل عمران:١٣٤]. فالمولى سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا يريد من المسلم أن يزكي نفسه ويصلح قلبه فقط، بل لا بد أن يصحب ذلك حركة إيجابية وسط الناس لينصلح حال الأمة ويشعر أفرادها أنهم أسرة واحدة، وجسد واحد؛ لذلك كان هناك العديد من الآيات التي تربط بين الأمرين: علاقة المسلم بالله عَزَّوَجَلَّ، التي يمثلها تمكن التقوى من القلب، واستسلامه له سبحانه، وعلاقته بالناس والتي كثيرًا ما عبر عنها القرآن بالإحسان كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ١٢٨ ﴾ [النحل:١٢٨].

﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ١١٢ ﴾ [البقرة:١١٢].

معنى الإحسان:

الإحسان هو الفضل والزيادة، ومعناه أن يقوم الواحد منا بأداء فعل (ما) بقدْرٍ زائدٍ على ماهو مطلوب منه، ومقابل الإحسان الظلم، فالظالم هو الذي يأخذ حقًّا ليس بحقه أو يترك أمرًا مأمورًا بتنفيذه.

أما العدل فإِعطاء كل ذي حق حقه دون زيادة أو نقصان..

إذن فالإحسان نقيضه الظلم، والعدل مرتبة متوسطة بينهما. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل:٩٠].

فدفع الظلم ورده عن صاحبه عدل لا شيء فيه، أما العفو والصفح عن الظالم فإحسان يثاب عليه فاعله:

﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الشورى:٤٠-٤٣].

فضل الإحسان:

تحدث القرآن كثيرًا عن فضل الإحسان ليستثير المشاعر، ويولد الرغبة، ويقوي العزيمة للقيام بصوره وأشكاله: فلقد أخبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في كتابه أنه يحب المحسنين: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران:١٣٤]. وأخبر بأن رحمته قريبة منهم: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف:٥٦].

.. والإحسان من العبد يستوجب إحسانًا من الله إليه: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ﴾ [آل عمران:٩٢].

﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن:٦٠].

.. والمحسن في معية الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت:٦٩].

.. والمستفيد الأول من الإحسان هو صاحبه: ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ﴾ [الإسراء:٧].

.. وبالإحسان يُدفع البلاء، قال تعالى:

﴿ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ﴾ [التوبة:٩٢].

﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الصافات:١٠٣- ١٠٥].

.. وصاحبه يعيش في سعادة وطمأنينة مع الآخرين: ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [فصلت:٣٤].

.. ولأهله النعيم الأوفى في الجنة والتمتع بالنظر إلى وجه الكريم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهو ما عبر عنه الله عَزَّوَجَلَّ بالزيادة في قوله: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس:٢٦].

أهمية الإحسان:

مما لا شك فيه أن هذا الفضل العظيم للإحسان والذي أفاض القرآن في بيانه، يعكس أهميته، وضرورة اصطباغ حياة المسلم به.

وقبل أن ينتقل بنا الحديث إلى صور الإحسان، نحاول معًا أن نجيب عن تساؤل قد يتبادر إلى ذهن البعض وهو: لماذا هذا الاهتمام الكبير بالإحسان، والذي قد يفوق الاهتمام ببعض العبادات التي يؤديها العبد بمفرده، وليس أدل على ذلك من قول رسول الله ﷺ: «**أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللهِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ، وَأَحَبُّ الأَعْمَالِ إِلَى**

اللهِ عَزَّوَجَلَّ **سُرُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ، أَوْ تَكْشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دَيْنًا، أَوْ تَطْرُدُ عَنْهُ جُوعًا، وَلَأَنْ أَمْشِيَ مَعَ أَخِي فِي حَاجَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ شَهْرًا** -يعني مسجد المدينة-، **وَمَنْ كَفَّ غَضَبَهُ سَتَرَ اللهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ كَتَمَ غَيْظَهُ وَلَوْ شَاءَ أَنْ يُمْضِيَهُ أَمْضَاهُ مَلَأَ اللهُ قَلْبَهُ رَجَاءً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ مَشَى مَعَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ فِي حَاجَةٍ حَتَّى يَتَهَيَّأَ لَهُ، أَثْبَتَ اللهُ قَدَمَهُ يَوْمَ تَزِلُّ الأَقْدَامُ، وَإِنَّ الخُلُقَ السَّيِّئَ يُفْسِدُ الأَعْمَالَ كَمَا يُفْسِدُ الخَلُّ العَسَلَ**»[1].

فلماذا هذه كله؟!

لأن النفس البشرية مجبولة على الشح كما قال تعالى: ﴿ **وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ** ﴾ [النساء:١٢٨]، ومجبولة كذلك على حب الاستئثار بكل خير: ﴿ **وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨** ﴾ [العاديات:٨].

والشح مفتاح كل شر، ولو تخلص منه العبد لعاش سعيدًا في الدنيا، ولقطف ثماره اليانعة في الآخرة: ﴿ **وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩** ﴾ [الحشر:٩].

عن أبي الهياج الأسدي قال: كنت أطوف بالبيت فرأيت رجلًا يقول: اللهم قني شح نفسي، لا يزيد على ذلك، فقلت له، فقال: إني إذا وقيت شح نفسي لم أسرق ولم أزنِ، وإذا بالرجل عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2].

فالشح ليس مقصورًا على المال فقط بل يشمل كل شيء يمكن أن يقدمه

---

(١) رواه الطبراني (١٢/ ٤٥٣)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٤٨) وقوله: «وإن الخلق السيئ...» من زيادة أبي نعيم.

(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤/ ٣٠٥).

الشخص لغيره من وقت وجهد ونصيحة وتعاون و... إلخ.

ولا سبيل للمرء كي يتخلص من شح نفسه إلا بممارسة صور الإحسان المختلفة والتعود على دوام البذل والعطاء.

يقول عبد الرحمن حبنكة الميداني: إن تدريب النفس على البذل والعطاء مرة بعد مرة يُكسبها خلق حب العطاء، ففي المراحل الأولى يكون البذل صعبًا على النفس، ثم يسهل شيئًا فشيئًا، ثم يكون حلوًا، ثم تزداد حلاوته، حتى يكون ممتعًا للنفس ومُسعدًا لها، ولقد صور الرسول ﷺ معالجة النفس بهذه الوسيلة تصويرًا غريبًا ودقيقًا[١].

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَثَلُ البَخِيلِ والمُتَصَدِّقِ كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عليهما جُبَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ، مِنْ ثُدِيِهِما إِلَى تَراقِيهِمَا، فَأَمَّا المُنفِقِ، فَلَا يُنْفِقُ شَيْئًا إِلَّا سُبِغَتْ أَوْ وَفَرَتْ عَلَى جِلْدِهِ، حَتَّى تُخْفِيَ بَنَانَهُ، وَتَعْفُو أَثَرَهُ، وَأَمَّا الْبَخِيلُ فَلَا يُرِيدُ أَنْ يُنْفِقَ شَيْئًا إِلَّا لَزِقَتْ كُلُّ حَلَقَةٍ مَكَانَهَا، فَهُوَ يُوَسِّعُهَا فلا تَتَّسِعُ**»[٢].

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن الأمة الإسلامية كالجسد الواحد كما قال ﷺ: «**مَثَلُ المُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ، مَثَلُ الجَسَدِ الْوَاحِدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضُوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالحُمَّى**»[٣].

هذا المفهوم العظيم للأمة الإسلامية لا يمكن تحقيقه إلا من خلال ممارسة الإحسان بصوره المختلفة فيما بيننا، فلو انشغل كل منا بنفسه ما تعلم من متعلم،

---

(١) الأخلاق الإسلامية وأسسها (١/ ٣٩٠).

(٢) رواه البخاري (٢/ ١١٥ برقم: ١٤٤٣)، ومسلم (٢/ ٧٠٨ برقم: ١٠٢١).

(٣) أخرجه الإمام مسلم (٤/ ١٩٩٩ برقم: ٢٥٨٦).

ولا سارع أحد في نجدة ملهوف أو خدمة محتاج، ولا ذهب مسلم إلى مريض ليعوده، أو جار ليزوره، أو ميت ليشيعه، أو لمتخاصمين ليصلح بينهما، وما اشتغل أحد بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله والجهاد في سبيله.. فيؤدي ذلك إلى تفشي الأمراض الاجتماعية في المجتمع وانهيار أركانه.. فالإحسان إذن ضرورة لقيام المجتمع الصالح.

صور الإحسان:

قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ**»[١].

فالإحسان يمكنه أن يشمل كل شيء في الحياة.. في العبادات، والأخلاق، والمعاملات بل وفي عبودية القلب لله عَزَّوَجَلَّ، كما في حديث جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ عندما سأل رسول الله ﷺ: فأخبرني عن الإحسان؟ قال ﷺ: «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»[٢].

ففي مجال العبادات نجد الإحسان يتمثل في التطوع بالنوافل كالسنن والرواتب وصلاة الضحى وقيام الليل وتكرار العمرة والصدقة وإسباغ الوضوء و..إلخ.

أما في مجال الأخلاق والمعاملات فصور الإحسان كثيرة تشمل جميع العلاقات بين الناس، يقف على قمتها: حسن الخلق وما فيه من جوانب الرفق، واللين، والسماحة، والجود، وطيب الكلام، والعفو، والصفح، وترك ما لا يعني.

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه عن شداد بن أوس (٣/ ١٥٤٨ برقم: ١٩٥٥).

(٢) أخرجه الإمام مسلم (١/ ٣٦ برقم:٨).

قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكَ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ**»[١].

من أعمال البر والإحسان:

إليك أخي الحبيب بعضًا من أعمال البر والإحسان في التعامل مع الناس، والتي ينبغي ألا نحرم أنفسنا من فضلها، بل نوقن بأن لهذه الإعمال تأثيرًا إيجابيًّا على القلب كما قال رسول الله ﷺ: «**إِنْ أَرَدْتَ أَنْ يَلِينَ قَلْبُكَ فَأَطْعِمِ المِسْكِينَ وَامْسَحَ عَلَى رَأْسِ اليَتِيمِ**»[٢].

■ بر الوالدين:

قال تعالى: ﴿ **وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ٢٣** ﴾ [الإسراء:٢٣].

فالإحسان إلى الوالدين من أهم صور البر والإحسان بخاصة عند كبرهما واستغناء الأبناء عنهما، قال ﷺ: «**رِضَا الرَّبِّ فِي رِضَا الوَالِدِ، وَسَخَطُ الرَّبِّ فِي سَخَطِ الوَالِدِ**»[٣]. فلنشملهما بالرعاية ولنبالغ في الإحسان إليهما ولنلبي طلباتهما، ونتلطف في الحديث معهما، ولا ننسَ تقبيل أيديهما، والدعاء الدائم لهما..

■ الإحسان إلى الزوجة والأولاد:

قال تعالى: ﴿ **وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ** ﴾ [النساء:١٩]. وقال ﷺ: «**أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ**

---

(١) رواه أحمد (٤٠/ ٤١٤ برقم:٢٤٣٥٥)، وأبو داود (٤/ ٢٥٢ برقم:٤٧٩٨).

(٢) رواه الإمام أحمد (١٣/ ٢١ برقم: ٧٥٧٦).

(٣) رواه الترمذي (٤/ ٣١٠ برقم:١٨٩٩)، وابن حبان (٢/ ١٧٢ برقم: ٤٢٩).

إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا، وَخَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِنِسَائِهِمْ»[١].

هذا بخصوص الزوجات، أما الإحسان إلى الأولاد فقد قال ﷺ: «**أَكْرِمُوا أَوْلَادَكُمْ، وَأَحْسِنُوا أَدَبَهُمْ**»[٢]. وقال ﷺ: «**مَنْ كَانَ لَهُ ثَلَاثُ بَنَاتٍ فَصَبَرَ عَلَيْهِنَّ وَأَطْعَمَهُنَّ وَسَقَاهُنَّ وَكَسَاهُنَّ مِنْ جِدَّتِهِ، كُنَّ لَهُ حِجَابًا مِنَ النَّارِ**»[٣].

إن الإحسان الحقيقي للزوجة والأولاد إنما يكون بأخذ أيديهم إلى طريق الله والتنافس معهم في السباق نحو الجنان، ولقد طالبنا الله بذلك، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ** ﴾ [التحريم:٦].

فلنعلمهم الإيمان ولننزع في قلوبهم حب الله وحب رسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ولنعودهم على التعامل الصحيح مع القرآن، وعلينا كذلك متابعتهم في أدائهم للعبادات وتشجيعهم على القيام بأعمال البر.

■ صلة الرحم:

قال تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ** ﴾ [النحل:٩٠]. وقال رسول الله ﷺ: «**مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ**»[٤].

---

(١) رواه أحمد (١٢/ ٣٦٤ برقم:٧٤٠٢)، وأبو داود (٤/ ٢٢٠ برقم: ٤٦٨٢)، والترمذي (٣/ ٤٥٨ برقم:١١٦٢)، وقال: حسن صحيح واللفظ له.

(٢) رواه ابن ماجة (٢/ ١٢١١ برقم:٣٦٧١).

(٣) حديث عقبة بن عامر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يرويه أحمد في المسند (٢٨/ ٦٢٢ برقم: ١٧٤٠٣)، وابن ماجة (٢/ ١٢١٠ برقم:٣٦٦٩)، والحديث يرويه نحو عشرة من الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ بألفاظ متقاربة في ذكر البنات والأخوات.

(٤) رواه البخاري (٨/ ٥ برقم:٥٩٨٦) ومسلم (٤/ ١٩٨٢ برقم: ٢٥٥٧). ومعنى يُنسأ له في أثره=

■ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هما السياج الذي يحمي المجتمع من الانحراف والانهيار، وهما واجبان على كل مسلم ومسلمة، كلٌّ حسب استطاعته ومع كونهما من الواجبات مثلهما مثل صلة الرحم وبر الوالدين والجهاد في سبيل الله؛ إلا أنهما -في الوقت ذاته- يحملان معنى الإحسان للطرف الآخر.

قال تعالى: ﴿ **وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ** ﴾ [التوبة:٧١].

وعن حذيفة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ المُنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ، ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ**»[1].

■ الدعوة إلى الله:

الدعوة إلى الله من أهم صور الإحسان: ﴿ **وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾** ﴾ [فصلت:٣٣].

وتكمن أهمية الدعوة إلى الله في كونها وسيلة أساسية لإنقاذ الناس من براثن الشيطان وإخراجهم -بإذن الله- من الظلمات إلى النور، وعودتهم إلى الصراط المستقيم: ﴿ **قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ** ﴾ [الجن:٢٢، ٢٣].

=أي: يؤخر له في أجله وعمره.

(١) رواه أحمد (٣٨/ ٣٣٢ برقم:٢٣٣٠١)، والترمذي (٤/ ٤٦٨ برقم:٢١٦٩) وقال:حديث حسن.

إن اهتمام القرآن والسنة بالدعوة إلى الله وترغيب المسلمين في القيام بها لمظهر عظيم من مظاهر حب الله الخير لعباده، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يريد عودة البشر كلهم إليه قبل فوات الأوان، وليس أدل على ذلك من قوله ﷺ: «**لِأَنْ يَهْدِيَ اللهُ عَلَى يَدَيْكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ حُمْرُ النَّعَمِ**»(١).

■ الجهاد في سبيل الله:

كيف يكون الجهاد في سبيل الله من صور الإحسان؟! سؤال قد يتبادر إلى أذهان البعض، والجواب عليه يحتاج إلى معرفة مقصود الجهاد وغايته.

إن الإِسلام لا يكره أحدًا على الدخول فيه كما قال تعالى: ﴿ **لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ** ﴾ [البقرة:٢٥٦].

وفي الوقت ذاته هناك في كل زمان ومكان رؤوس للكفر والإِجرام يحولون بين الناس وبين الله، فيصبح مصير هؤلاء المجرمين وأتباعهم من الضعفاء واحدًا ألا هو النار.. قال تعالى: ﴿ **وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ ٣١** ﴾ [سبأ:٣١].

من هنا تأتي أهمية الجهاد في سبيل الله ليفسح الطريق ويزيل العوائق التي تحول بين الناس وبين دعوتهم إلى الله، فإذا انكسرت شوكة الطغاة؛ بدأت الدعوة بالحسنى: ﴿ **وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ** ﴾ [الكهف:٢٩].

فالجهاد إذن رحمة للناس والعمل على استنقاذهم من النار؛ لذلك كانت

---

(١) رواه البخاري (٤/ ٤٧ برقم:٢٩٤٢)، ومسلم (٤/ ١٨٧٢ برقم: ٢٤٠٦).

درجته عند الله لا تعدلها درجة.

قال تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [التوبة:١٩-٢٢].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قيل: للنبي ﷺ ما يعدل الجهاد في سبيل الله عَزَّ وَجَلَّ؟ قال: «**لَا تَسْتَطِيعُونَهُ**» قال: فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثًا كل ذلك يقول: «**لَا تَسْتَطِيعُونَهُ**»: وقال في الثالثة: «**مَثَلُ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ الصَّائِمِ الْقَائِمِ الْقَانِتِ بِآيَاتِ اللهِ لَا يَفْتُرُ مِنْ صِيَامٍ وَلَا صَلَاةٍ حَتَّى يَرْجِعَ الْمُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ تَعَالَى**»(١).

والجهاد في سبيل الله ليس مقصورًا على القتال فقط فمعناه أوسع من ذلك، فالجهاد في اللغة هو بذل الجهد، واستفراغ ما في الوسع والطاقة من قول أو فعل. وفي الاصطلاح الشرعي: بذل المسلم طاقته وجهده في نصرة الإسلام ابتغاء مرضات الله(٢): ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [التوبة: ١٢٠].

---

(١) رواه البخاري (٤/ ١٥ برقم: ٢٧٨٧)، ومسلم (٣/ ١٤٩٨ برقم: ١٨٧٨) واللفظ له.

(٢) أصول الدعوة (٢٧٢).

ومن صور الإحسان:

■ **التآخي في الله:**

عن النبي ﷺ: «**أَنَّ رَجُلًا زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى، فَأَرْصَدَ اللهُ لَهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا، فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ، قَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ، قَالَ: هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا؟ قَالَ: لَا، غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللهِ** عَزَّوَجَلَّ، **قَالَ: فَإِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكَ، بِأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ**»(١).

■ **الإحسان إلى الجار:**

عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «**خَيْرُ الْأَصْحَابِ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى خَيْرُهُمْ لِصَاحِبِهِ، وَخَيْرُ الجِيرَانِ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى خَيْرُهُمْ لِجَارِهِ**»(٢).

وعن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يَا أَبَا ذَرٍّ إِذَا طَبَخْتَ مَرَقَةً فَأَكْثِرْ مَاءَهَا وَتَعَاهَدْ جِيرَانَكَ**»(٣).

■ **السعي على الأرامل والمساكين:**

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**السَّاعِي عَلَى الأَرْمَلَةِ وَالمِسْكِينِ، كَالمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللهِ**» وأحسبه قال: «**وَكَالقَّائِمِ لَا يَفْتُرُ، وَكَالصَّائِمِ لَا يُفْطِرُ**»(٤).

---

(١) رواه مسلم (٤/ ١٩٨٨ برقم: ٢٥٦٧).

(٢) رواه أحمد (١١/ ١٢٦ برقم: ٦٥٦٦)، والترمذي (٤/ ٣٣٣ برقم: ١٩٤٤)، وقال: حسن غريب.

(٣) رواه مسلم (٤/ ٢٠٢٥ برقم: ٢٦٢٥).

(٤) رواه البخاري (٨/ ٩ برقم:٦٠٠٧)، ومسلم (٤/ ٢٢٨٦ برقم: ٢٩٨٢) واللفظ له.

■ قضاء حوائج المسلمين:

عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ قال: «**الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ، مَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ بِهَا كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(١).

■ الإصلاح بين الناس:

قال تعالى: ﴿**لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾**﴾ [النساء: ١١٤].

وقال ﷺ: «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ؟**» قالوا: بلى، قال: «**صَلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ، فَإِنَّ فَسَادَ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَالِقَةُ**»(٢).

■ التعاون على البر والتقوى:

قال تعالى: ﴿**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ**﴾ [المائدة:٢].

وقال رسول الله ﷺ: «**مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللهِ فَقَدْ غَزَا، وَمَنْ خَلَفَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللهِ بِخَيْرٍ فَقَدْ غَزَا**»(٣).

---

(١) رواه البخاري (٣/ ١٢٨ برقم:٢٤٤٢)، ومسلم (٤/ ١٩٩١ برقم: ٢٥٨٠) واللفظ له.

(٢) رواه أحمد (٤٥/ ٤٩٩ برقم:٢٧٥٠٨)، وأبو داود (٤/ ٢٨٠ برقم:٤٩١٩)، والترمذي (٤/ ٦٦٣ برقم:٢٥٠٩).

(٣) رواه البخاري (٤/ ٢٧ برقم: ٢٨٤٣)، ومسلم (٣/ ١٥٠٦ برقم: ١٨٩٥).

■ عيادة المريض:

عن علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَعُودُ مُسْلِمًا غُدْوَةً إِلَّا صَلَّى عَلَيْهِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ حَتَّى يُمْسِيَ، وَإِنْ عَادَهُ عَشِيَّةً إِلَّا صَلَّى عَلَيْهِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ حَتَّى يُصْبِحَ، وَكَانَ لَهُ خَرِيفٌ فِي الْجَنَّةِ**»[١].

وعن جابر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ عَادَ مَرِيضًا لَمْ يَزَلْ يَخُوضُ فِي الرَّحْمَةِ حَتَّى يَجْلِسَ فَإِذَا جَلَسَ اغْتَمَسَ فِيهَا**»[٢].

■ إطعام الطعام:

قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ فِي الجَنَّةِ لَغُرَفًا يُرَى بُطُونُهَا مِنْ ظُهُورِهَا وَظُهُورُهَا مِنْ بُطُونِهَا**» قال أعرابي: يا رسول الله، لمن هي؟ قال: (**لِمَنْ أَطَابَ الْكَلَامَ وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ وَصَلَّى بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ**)[٣].

■ إعانة الضعيف:

عن أبي ذر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أن رسول الله ﷺ قال: «**لَيْسَ مِنْ نَفْسِ ابْنِ آدَمَ إِلَّا عَلَيْهَا صَدَقَةٌ، فِي كُلِّ يَوْمٍ طَلَعَتْ فِيهِ الشَّمْسُ**» قيل: يا رسول الله، ومن أين لنا صدقة نتصدق بها؟ فقال: «**إِنَّ أَبْوَابَ الخَيْرِ لَكَثِيرَةٌ: التَّسْبِيحُ وَالتَّحْمِيدُ، وَالتَّكْبِيرُ وَالتَّهْلِيلُ،**

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٢٧٧ برقم:٩٧٥)، والترمذي (٣/ ٢٩١ برقم:٩٦٩)، وقال: حسن غريب، وابن ماجة (١/ ٤٦٣ برقم:١٤٤٢) واللفظ للترمذي.

(٢) حديث جابر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يرويه الإمام أحمد (٢٢/ ١٦٢ برقم: ١٤٢٦٠)، وابن حبان (٧/ ٢٢٢ برقم:٢٩٥٦) وفي الباب عن أنس بن مالك وغيره رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ.

(٣) رواه أحمد (٢/ ٤٤٩ برقم: ١٣٣٨)، والترمذي (٤/ ٣٥٤ برقم:١٩٨٤) وقال: حديث غريب.

وَالأَمْرُ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ المُنْكَرِ، وَتُمِيطُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَتُسْمِعُ الأَصَمَّ، وَتَهْدِي الأَعْمَى، وَتَدُلُّ المُسْتَدِلَّ عَلَى حَاجَتِهِ، وَتَسْعَى بِشِدَّةِ سَاقَيْكَ مَعَ اللَّهْفَانِ المُسْتَغِيثِ، وَتَحْمِلُ بِشِدَّةِ ذِرَاعَيْكَ مَعَ الضَّعِيفِ، فَهَذَا كُلُّهُ صَدَقَةٌ مِنْكَ عَلَى نَفْسِكَ»(١).

■ **إماطة الأذى عن الطريق:**

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَرَّ رَجُلٌ بِغُصْنِ شَجَرَةٍ عَلَى ظَهْرِ طَرِيقٍ فَقَالَ: وَاللهِ لَأُنَحِّيَنَّ هَذَا عَنْ طَرِيقِ المُسْلِمِينَ لَا يُؤْذِيهِمْ، فَأُدْخِلَ الجَنَّةَ**»(٢).

■ **السماحة في البيع والشراء والأخذ والعطاء وحسن القضاء:**

عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**رَحِمَ اللهُ رَجُلًا سَمْحًا إِذَا بَاعَ، وَإِذَا اشْتَرَى، وَإِذَا اقْتَضَى**»(٣).

وعن أبي قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُنَجِّيَهُ اللهُ مِنْ كُرَبِ يَوْمِ القِيَامَةِ فَلْيُنَفِّسْ عَنْ مُعْسِرٍ أَوْ يَضَعْ عَنْهُ**»(٤).

---

(١) رواه بهذا اللفظ ابن حبان في صحيحه (٨/ ١٧١ برقم:٣٣٧٧).

(٢) رواه البخاري (١/ ١٣٢، ٣/ ١٣٥ برقم: ٦٥٢، ٢٤٧٢)، ومسلم (٤/ ٢٠٢١ برقم:١٩١٤) واللفظ له.

(٣) رواه البخاري (٣/ ٥٧ برقم:٢٠٧٦).

(٤) رواه مسلم (٣/ ١١٩٦ برقم:١٥٦٣)

ومن صور الإحسان في هذا الباب أيضًا: إقالة المسلم، أي فسخ البيع وعودة المبيع إلى مالكه والثمن إلى المشتري إذا ندم أحدهما أو كلاهما.

قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ أَقَالَ مُسْلِمًا، أَقَالَ اللهُ عَثْرَتَهُ**»[1].

ومن صور الإحسان كذلك: إتقان العمل وإكرام الضيف، وتعليم الجاهل، ونصرة المظلوم، والإحسان إلى المملوك والخادم، وغرس الأشجار، وحفر الآبار، وإفشاء السلام، والتهادي، واتباع الجنائز، وتلبية دعوة المسلم: ﴿ **وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ** ﴿٢١٥﴾ ﴾ [البقرة:٢١٥].

لا تكن كالشمعة:

قد يندفع البعض حين يقرأ الآيات والأحاديث الواردة في فضل الإحسان إلى الانشغال التام به تاركًا قلبه دون غذاء، ونفسه دون تزكية، ولقد حذر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من ذلك فقال: ﴿ **أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ** ﴿٤٤﴾ ﴾ [البقرة:٤٤].

إن الانشغال بأعمال البر، والسعي في خدمة الناس، ودعوتهم إلى الله، أمر عظيم، ومطلوب من الجميع، ولكن عندما لا يواكب ذلك اهتمام بالبناء الداخلي وحسن الصلة بالله عَزَّوَجَلَّ؛ فإن هذا من شأنه أن يحدث أثرًا سلبيًّا في نفس صاحبه قد يجعله يعاني من الفتور وضيق الصدر، وشيئًا فشيئًا يصبح أداؤه لهذه الأعمال بدافع العادة أو الحياء.

---

(١) رواه أحمد (١٢/ ٤٠٠ برقم:٧٤٣١)، وابن ماجة (٢/ ٧٤١ برقم: ٢١٩٩)، وأبو داود (٣/ ٢٧٤ برقم:٣٤٦٠) واللفظ له.

ولقد حذرنا رسول الله ﷺ من هذا الأمر فقال: «**مَثَلُ الَّذِي يُعَلِّمُ النَّاسَ الخَيْرَ، وَيَنْسَى نَفْسَهُ؛ مَثَلُ الفَتِيلَةِ، تُضِيءُ لِلنَّاسِ وَتَحْرِقُ نَفْسَهَا**»[١].

ويقول الرافعي: إن الخطأ أكبر الخطأ أن تنظم الحياة من حولك وتترك الفوضى في قلبك[٢].

فلا بديل للأمرين معًا: تقوى الله والإحسان: ﴿**وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾**﴾ [لقمان:٢٢].

.. الرد على رسالة «رجل لا قلب له»:

وفي نهاية هذا الفصل نورد الرد على رسالة «**رجل لا قلب له**» والتي تم ذكرها في الفصل الثاني: «**هل نحن ربانيون؟**»، والمتأمل للرد سيجد أنه ذكر لهذا الأخ العديد من الوسائل العملية المشار إليها في هذه الصفحات.

... يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يا أخي!

وعليك السلام ورحمة الله وبركاته..

قرأت خطابك متأثرًا أعمق التأثير، بصدق لهجتك وروعة شجاعتك.. ودقة يقظتك وحياة قلبك.

لست يا عزيزي ميت القلب كما تزعم لنفسك، ولكن شاب مرهف الحس

---

(١) رواه الخطيب البغدادي في اقتضاء العلم العمل (برقم:٧١٠)، وعزاه السيوطي في الجامع الصغير للطبراني.

(٢) وحي القلم (٢/ ٤٢).

صافي النفس دقيق الشعور، ولو لم تكن كذلك ما اتهمت نفسك ولا أنكرت حسك، ولكن بُعد همتك وتنائي غايتك يجعلك تستصغر الكبير من شأنك وتتطلب المزيد لوجدانك، ولا بأس عليك في ذلك، فهكذا يجب أن تكون.

وسأجاريك فيما زعمت وأسايرك كما سرت، وسأحاول أن أتقدم إليك ببعض النصائح، فإن أفادتك ورأيت في العمل بها إرواءً لغلّتك وشفاء لعلتك، فالحمد لله على توفيقه، وإن لم يكن ذلك كذلك فيسعدني لقاؤك، لنتعاون في تشخيص الداء والدواء.

صحبة أهل الخشوع والتأمل، وملازمة أهل التفكير والتبتل، وملازمة هذا الصنف من الأتقياء الصالحين الذين تتفجر جوانبهم بالحكمة، وتُشرق وجوههم بالنور، وتزدان صدورهم بالمعرفة -وقليل ما هم- دواء ناجح، فاجتهد أن يكون لك من هؤلاء أصدقاء تلازمهم، وتأوي إليهم، وتصل روحك بأرواحهم، ونفسك بنفوسهم، وتقضي معهم معظم وقت الفراغ، واحذر من الأدعياء، وتحرّ من ينهضك حاله، ويدلك على الخير فعاله، ومن إذا رأيته ذكرت الله.

هذه الصحبة من أنفع الأدوية، فالطبع سراق، والقلب يتأثر بالقلب، وتستمد الروح من الروح، فاجتهد أن تجد لك من الأرواح الصالحة صاحبًا.

والفكر والذكر في أوقات الصفاء والخلوة والمناجاة والتأمل في هذا الكون البديع العجيب، واستجلاء سر الجمال والجلال منه، وإجالة النظر في هذا القلب واللسان بآثار هذه العظمة الساحرة والحكمة البالغة، كل ذلك -يا عزيزي- مما يمد القلب بالحياة، وينير جوانب النفس بالإيمان واليقين: ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ** ﴿١٩٠﴾ ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

ثم التفكير في هذا المجتمع الإنساني واستطلاع مظاهر بؤسه وسعادته وشقائه وهنائه، وعيادة المرضى في أسرّتهم، ومواساة البائسين في نكبتهم، وتعرّف الأسباب النفسانية لهذا الشقاء بين الناس من جحود وكفران، وظلم وعدوان وأثرة وأنانية وانخداع بالأعراض الفانية، هذه كلها ضربات على أوتار القلوب تجمع شتاتها وتحيي مواتها، فاجتهد أن يكون وجودك عزاء للبائسين، ومواساة للمنكوبين، وليس أعمق أثرًا في المشاعر من إحسان إلى مضطر أو إغاثة لملهوفٍ أو مشاركة لبائس حزين!

وبعد يا عزيزي! فالقلوب بيد الله وحده يصرفها كما يشاء، فألح عليه في الدعاء أن يمد قلبك بالحياة، ويشرح صدرك للإِيمان، ويفيض عليك من برد اليقين، فضلًا منه ونعمة، وتخير لذلك أوقات الإجابة، وساعات السحر، فدعوة السحر سهم نافذ لا يقف دون العرش، وما أشك في أنك مخلص في غايتك، صادق في دعوتك: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [المائدة:٢٧].

الفصل السادس

عقبات في طريق الربانية

- جهاد النفس على القيام بالطاعة.
- جهاد النفس على لزوم الصدق والإخلاص.
- وسائل جهاد النفس على لزوم الصدق والإخلاص.
- المحور الأول: معرفة حق الله على عباده.
- المحور الثاني: اليأس من النفس.
- التربية الوقائية.
- معينات على الطريق.
- احذر: أمامك بعض العقبات.

عقبات في طريق الربانية

من أهم العقبات التي تعترض العبد في طريقه إلى الله: النفس.

ذلك بأن الله عَزَّوَجَلَّ خلق لكل عبد من عباده نفسًا أمارة بالسوء ليختبر مدى صدق عبوديته له، وجعل من أهم صفاتها الجهل والظلم والشح... تؤثر العاجلة وتحب الراحة والشهوات، ولأن القلب هو الملك ومحل الإرادة واتخاذ القرار تعمل النفس دائمًا على أسره وإخضاعه لها وتجنيده لخدمة حظوظها، ويقف الشيطان من ورائها مستغلًّا جهلها وشحها فيزين لها الأفعال التي تستوفي بها حظوظها الظاهرة والخفية.

إن النفس هي العقبة الكبرى التي تعترض طريق القلب إذا ما أراد الاستسلام لله عَزَّوَجَلَّ، فهي ترفض قيام العبد بفعل الطاعات لحبها للراحة، فإن جاهدها، وألزمها أداءها فإنها لا تستسلم لذلك، بل تعمل جاهدة على نيل حظها من تلك الطاعة إما بطلب المنزلة بها عند الناس، أو الإعجاب بأدائها وعدم ربط النجاح في أدائها بالله -عَزَّوَجَلَّ- بل بإمكاناتها ومواهبها.. فتلح على صاحبها ليحمدها على القيام بتلك الطاعة، بل تظن أنها قد صارت لها مكانة عند الله بها فيؤدي ذلك إلى غياب الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ، وتستطيل بها على غيرها فتتكبر عليهم.

إن قيمة العبادات التي نؤديها بالجوارح إنما تكون بما تحدثه من عبودية في

القلب، فإن لم تؤثر فيه بزيادة خشوعه وخضوعه لله عَزَّوَجَلَّ كانت قليلة النفع، عديمة الجدوى:

﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ [الحج:٣٧].

ولكي نحافظ على أعمالنا الصالحة من السرقة، وألا يكون حظنا منها التعب والسهر فقط، كان لزامًا علينا مجاهدة النفس والاستشعار الدائم لخطورتها، وعدم الركون إليها، أو إهمال تزكيتها مهما كان حجم الأوراد والعبادات التي نؤديها.

فالخطوة الأولى في جهادنا مع أنفسنا هو ترويضها وإلزامها فعل الطاعات، أما الثانية فدوام الحذر منها وجهادها على لزوم الصدق والإخلاص.

جهاد النفس على القيام بالطاعة

النفس كما خلقها الله عَزَّوَجَلَّ تحب الراحة وتكره التكليف، فهي لا تنقاد بسهولة إذا ما طُلب منها فعل الطاعة، بل تحتاج إلى جهاد، وترويض وصبر حتى تلتزم بأمر الله.

قال تعالى: ﴿ **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠** ﴾ [الشمس:٧-١٠].

يقول الآجري:

أرى النفس تهوى ما تريد   وفي متابعتي لها عطب شديد
تقول وقد ألحت في هواها   مرادي كلما أهوى أريد

فلا بد من إلزام أنفسنا أداء الطاعات والقربات واجتناب الحرام بل والمكروهات، ولا يكون ذلك وقت النشاط والرغبة فقط بل في كل الأوقات وإن كرهته نفوسنا.

وصية لقمان لابنه:

عن الحسن قال: وصى لقمان ابنه فقال له: يابني لا تنتفع بالإيمان إلا بالعمل، فإن الإيمان قائد والعمل سائق والنفس حرون[١]، فإن فتر سائقها ضلت عن الطريق

(١) حرون: أي لا ينقاد بسهولة وإذا اشتد به الجري وقف.

فلم تستقم لصاحبها، وإن فتر قائدها حرنت فلم ينتفع منها سائقها، فإذا اجتمع ذلك استقامت طوعًا وكرهًا... ولا يستقيم الدين إلا بالتطوع والكره.

فلا تقنع نفسك بقليل من الإيمان ولا تقنع لها بضعيف من العمل، ولا ترخص لها في قليل من معصية الله عَزَّوَجَلَّ، ولا تعدها بشيء من استحلال الحرام.

فإن النفس إذا أُطمعت طمعت، وإذا أيستها أيست، وإذا أقنعتها قنعت، وإذا أرخيت لها طغت، وإذا زجرتها انزجرت، وإذا عزمت عليها أطاعت، وإذا فوضت إليها أساءت، وإذا حملتها على أمر الله صلحت، وإذا تركت الأمر إليها فسدت، فاحذر نفسك واتهمها على دينك، ولا تغفلها من الزجر فتفسد عليك، ولا تأمنها فتغلبك.

فإن من قوَّم نفسه حتى تستقيم فبالحري أن ينفع نفسه وغيرها، ومن غلبته نفسه فأنفس الناس أحرى أن تغلبه، وكيف لا يضعف عن أنفس الناس وقد ضعف عن نفسه؟!

يا بني:

إن الحكيم يذل نفسه بالمكاره حتى تعترف بالحق، وإن الأحمق يخير نفسه في الأخلاق فما أحبت منها أحب، وما كرهت كره.

ويعلق الآجري على هذه الوصية فيقول:

واعلموا أنه من لم يُحسن أن يكون طبيبًا لنفسه لم يصلح أن يكون طبيبًا لنفس غيره. ومن لم يحسن أن يؤدب نفسه لم يُحسن أن يؤدب نفس غيره[1].

---

(١) أدب النفوس للآجري (ص ٢٥، ٢٦) باختصار.

الخير عادة:

من صفات النفس أنها إذا تعودت على فعل شيء ما ألفته وصار من عادتها، فلا تجدها تقاوم صاحبها كثيرًا عندما يعزم على القيام به.

قال رسول الله ﷺ: «**الخَيْرُ عَادَةٌ...**»[١].

فلنعود أنفسنا على فعل الخير وذلك بِتَكلُّفه في البداية والمواظبة عليه ليصير طبعًا وسجية بعد ذلك.. قال رسول الله ﷺ: «**وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ...**»[٢].

فالنفس وما عودتها تتعود.

وفي المقابل، فإننا إذا ما تركنا المواظبة على أداء فعل (ما) بعد تعودنا عليه، فسنجد من أنفسنا مقاومة إذا ما أردنا القيام به مرة أخرى، كمن عود نفسه على التبكير في الذهاب للمسجد لأداء الصلاة ثم تكاسل أو انشغل عن ذلك فترة من الزمن؛ فمن المتوقع صعوبة عودته إلى القيام بهذا الفعل، بل يحتاج إلى مجاهدة جديدة لنفسه في هذا الأمر؛ لذلك كان من دعائه ﷺ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الأَمْرِ وَالعَزِيمَةَ عَلَى الرُّشْدِ**»[٣].

---

(١) رواه ابن ماجة (١/ ٨٠ برقم:٢٢١).

(٢) رواه البخاري (٢/ ١٢٢ برقم: ١٤٦٩)، ومسلم (٢/ ٧٢٩ برقم:١٠٥٣) عن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) رواه أحمد (٢٨/ ٣٣٨ برقم:١٧١١٤)، والترمذي (٥/ ٤٧٦ برقم:٣٤٠٧)، والنسائي (٣/ ٥٤ برقم:١٣٠٤).

من فقه المجاهدة:

ليس معنى إكراه النفس على فعل الطاعات وترك المحرمات أن يكون ذلك أيضًا في المباحات، فللنفس حقوق لا بد أن تنالها وإلا حرنت علينا، وأبت مواصلة السير.

فكما أن شرعنا الحنيف يطالبنا بجهاد النفس وإلزامها طاعة ربها وترك معصيته؛ فإنه أيضًا يطالبنا بألا نجور عليها بمنعها حقها، ولنا أبلغ العبرة في قصة الصحابة الثلاثة الذين ذهبوا إلى بيت النبي ﷺ يسألون عن عبادته، فلما أُخبروا بها كأنهم تقالُّوها[1]، وقالوا: أين نحن من النبي ﷺ، قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فأصلي الليل أبدًا، وقال الآخر: وأنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال الآخر: وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا، فجاء الرسول ﷺ إليهم فقال: **«أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا؟! أَمَا وَاللهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»**[2].

ويؤكد ابن الجوزي على هذا المعنى فيقول:

أعجب الأشياء مجاهدة النفس لأنها تحتاج إلى صناعة عجيبة، فإن أقوامًا أطلقوها فيما تحب، فأوقعتهم فيما كرهوا، وإن قومًا بالغوا في خلافها حتى منعوها حقها، وظلموها، وأثّر ظلمهم لها في تعبداتهم، فمنهم من أساء غذاءها فأثمر ذلك ضعف بدنها عن إقامة واجبها.

---

(١) أي عدُّوها قليلة.

(٢) رواه البخاري (٧/ ٢ برقم:٥٠٦٣)، ومسلم (٢/ ١٠٢٠ برقم:١٤٠١).

ومنهم من أفردها في خلوة أثمرت الوحشة بين الناس، وآلت إلى ترك فرض أو فضل من عيادة مريض أو بر والدة، والحازم من تعلم منه نفسه الجد وحفظ الأصول، فإذا فسح لها في مباح لم تتجاسر أن تتعداه.[١]

ويقول: قد كان بعض السلف يشتهي الحلواء فيعدها لنفسه، فإذا صلى بالليل أطعمها، وكان الثوري يأكل ما يشتهي ثم يقوم إلى الصباح[٢].

---

(١) صيد الخاطر لابن الجوزي.

(٢) الطب الروحاني لابن الجوزي (ص ١٣٢).

جهاد النفس
على لزوم الصدق والإخلاص

قد يستطيع الواحد منا أن يلزم نفسه بعمل من الأعمال الصالحة، ويظن أنه قد نجح في السيطرة عليها، ولكنها لا تستسلم له بهذه السهولة، بل تبدأ مرحلة جديدة تستهدف منها تطويع هذا العمل وجعله يخدم حظوظها المعنوية؛ إما بطلب المنزلة به عند الناس وهو ما يسمى بالرياء، أو بتزيينه في نظر صاحبه بعد أدائه حتى يُعجب بها ويحمدها ويستعظمها، وينسبه إليها، ويمن بهذا العمل على غيره، ويتطاول عليه به، وينسى أن الله هو الذي أعانه على أدائه فيحبط العمل نتيجة ذلك: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ** ﴾[البقرة:٢٦٤].

فالرياء والعُجب من صور الشرك (الأصغر) الخطيرة التي تفسد العمل وتبعده عن دائرة الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ.

يقول ابن تيمية: الرياء من باب الإشراك بالخلق، والعُجب من باب الإشراك بالنفس.

الشرك الخفي:

عن شداد بن أوس قال: رأيت النبي ﷺ يبكي فقلت: ما يبكيك يا رسول الله؟ قال: «**إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَتَخَوَّفُ عَلَى أُمَّتِي، الإِشْرَاكُ بِاللهِ، أَمَا إِنِّي لَسْتُ أَقُولُ يَعْبُدُونَ**

شَمْسًا، وَلَا قَمَرًا، وَلَا وَثَنًا، وَلَكِنَّ أَعْمَالًا لِغَيْرِ اللهِ، وَشَهْوَةً خَفِيَّةً»[١].

أما العُجب فداؤه وبيل وخطره عظيم، وهو آفة العُبَّاد... من استسلم له وذاق طعم نفسه لا يكاد يفلح...

إن تصفية العمل من رؤية الناس وطلب المنزلة عندهم أمر صعب، والتخلص منه يحتاج إلى الكثير من المجاهدة، لكنه ليس بأصعب من إعجاب المرء بنفسه -والله أعلم- فالنفس محبوبة وملازمة لنا ليل نهار، ولن تكُفَّ عن تزيين الأعمال الصالحة في عين صاحبها حتى يعجب بنفسه ويحمدها على تلك الأعمال؛ لذلك كان العُجب من المهلكات.

قال رسول الله ﷺ: «**ثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ: شُحٌّ مُطَاعٌ وَهَوًى مُتَّبَعٌ وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ مِنَ الْخُيَلَاءِ، وَثَلَاثٌ مُنْجِيَاتٌ: العَدْلُ فِي الرِّضَا وَالغَضَبِ، وَالقَصْدُ فِي الغِنَى وَالفَاقَةِ، وَمَخَافَةُ اللهِ فِي السِّرِّ وَالعَلَانِيَةِ**»[٢].

فإن كان العجب من المهلكات، وهو آفة العلماء والعباد فما معناه، وما خطورته، وكيف يمكننا التعامل معه، واجتناب شره؟!!

معنى العجب:

يُعرِّف الحارث المحاسبي العجب فيقول:

هو حمد النفس على ما عملت أو علمت، ونسيان النعم من الله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) رواه أحمد (٢٨/ ٣٤٦ برقم:١٧١٢٠)، وابن ماجة (٢/ ١٤٠٦ برقم:٤٢٠٥) واللفظ له.

(٢) رواه الطبراني في الأوسط (٥/ ٣٢٨) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو عند البيهقي في شعب الإيمان وغيره.

وسئل ابن المبارك عن العجب؟ قال: أن ترى أن عندك شيئًا ليس عند غيرك، ولا أعلم فى المصلين شيئًا شرًّا من العجب.

خطورة العُجب:

العجب من أشد المهلكات التي تهلك المرء... لماذا؟!

«لأن المعجب يزكي نفسه.. فإذا زكاها لم يتهمها وظن أنها ناجية، ولم تعظم عليه مخالفتها أمر ربها.

فمن خطورته: أنه يُعمي على صاحبه كثيرًا من ذنوبه، وينسى ما لم يعم عليه، وإذا ذكر ذنوبه استصغرها، ويعمّي عليه أخطاءه وقوله بغير الحق.

ومن خطورته أن يجعل صاحبه يغتر بالله عَزَّوَجَلَّ، ويظن أن له عند الله قدرًا عظيمًا قد استحق به الثواب على عمله، حتى كأنه له منّة على ربه.

فحينئذٍ ينقطع من الله عَزَّوَجَلَّ عصمته ويكله إلى نفسه، فيرى أنه من المحسنين وهو عند الله من الظالمين الفاسقين»[١].

وروى الحاكم عن ابن عباس قال: «ما أصاب داود ما أصابه بعد القدر إلا من عُجب، عجب به نفسه، وذلك أنه قال:

يارب، ما من ساعة من ليل أو نهار، إلا وعابد من آل داود يعبدك، يصلي لك، أو يسبح، أو يكبر، وذكر أشياء، فكره الله ذلك، فقال: ياداود، إن ذلك لم يكن إلا بي، فلولا عوني ما قويت عليه... وجلالي لأكلنك إلى نفسك يومًا. قال: يارب

---

(١) الرعاية لحقوق الله للمحاسبي.

فأخبرني به، فأصابته الفتنة في ذلك اليوم»[١].

ولما وُكِلَ أصحاب رسول الله ﷺ يوم حنين إلى قوتهم وكثرتهم ونسوا فضل الله عليهم وقالوا: لا نغلب اليوم من قلة... تركهم الله لأنفسهم ووكلهم لها: ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ [التوبة:٢٥].

قال الشعبي: كان رجل إذا مشى أظلته سحابة، فقال رجل: لأمشين في ظله، فأعجب الرجل بنفسه، فقال: مثل هذا يمشي في ظلي، فلما افترقا ذهب الظل مع ذلك الرجل. ولقد أفاض الكثير من العلماء في بيان خطورة العجب، نلخصه في هذه النقاط:

العُجب يحجب التوفيق والتأييد من الله تعالى عن صاحبه:

فالمعجب مخذول، فلو انقطع عن العبد التأييد والتوفيق من الله عَزَّوَجَلَّ فما أسرع ما يهلك؛ لذلك عد النبي ﷺ: العُجب من المهلكات.

ولقد بعث أبو بكر لخالد بن الوليد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ رسالة بعد انتصاراته في العراق يقول فيها: فليهنئك أبا سليمان النية والحظوة فأتمم يتمم الله لك، ولا يدخلنك عُجب فتخسر وتُخذل، وإياك أن تُدِلَّ بعمل فإن الله له المن وهو ولي الجزاء[٢].

مقت الله عَزَّوَجَلَّ وغضبه على المعجب:

فالعظمة والكبرياء لا تكون إلا لله، فمن تعظم في نفسه فقد نازع الله ذلك

---

(١) المستدرك على الصحيحين للحاكم (٢/ ٤٧٠ برقم: ٣٦٢٠).

(٢) تاريخ الطبري (٣/ ٣٨٥).

فاستحق الغضب والعقاب من الله عَزَّوَجَلَّ.

قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ تَعَظَّمَ فِي نَفْسِهِ أَوِ اخْتَالَ فِي مِشْيَتِهِ، لَقِيَ اللهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانٌ**»(١).

وقالت عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا: لبست مرة درعًا لي جديدة فجعلت أنظر إليها أعجبت بها، فقال أبو بكر: ما تنظرين؟ إن الله ليس بناظر إليك! قلت: ومم ذاك؟ قال: أما علمت أن العبد إذا دخله العُجب بزينة الدنيا مقته ربه عَزَّوَجَلَّ حتى يفارق تلك الزينة. قالت: فنزعته فتصدقت به. فقال أبو بكر: عسى ذلك أن يكفر عنك(٢).

العجب يُحبط العمل:

أخرج الإمام مسلم في صحيحه أن رسول الله ﷺ حدث أن رجلًا قال: «**وَاللهِ لَا يَغْفِرُ اللهُ لِفُلَانٍ! وَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ؟ فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِفُلَانٍ، وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ**»(٣). قال عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: من قال إنه عالم فهو جاهل، ومن قال إنه في الجنة فهو في النار.

العجب قد يؤدي إلى سوء الخاتمة:

ففي الحديث: «...**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ**...»(٤).

---

(١) رواه الإمام أحمد (١٠/ ٢٠٠ برقم:٥٩٩٥).

(٢) حلية الأولياء (١/ ٣٧).

(٣) صحيح مسلم (٤/ ٢٠٢٣ برقم:٢٦٢١).

(٤) رواه البخاري (٤/ ٣٧ برقم:٢٨٩٨)، ومسلم (٤/ ٢٠٤٢).

ويشرح **ابن رجب** هذه الفقرة فيقول: قوله ﷺ: «**فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ**»، إشارة إلى أن باطن الأمر يكون بخلاف ذلك، وأن خاتمة السوء تكون بسبب دسيسة باطنة لا يطلع عليها الناس، إما من جهة عمل سيئ ونحو ذلك، فتلك الخصلة الخفية توجب سوء الخاتمة عند الموت[١].

التعرض للحساب الدقيق يوم القيامة:

أخرج الإمام أحمد في الزهد أن الله تعالى أوحى إلى داود عَلَيْهِ السَّلَامُ: «يا داود، أنذر عبادي الصديقين، فلا يُعجبنّ بأنفسهم، ولا يتكلن على أعمالهم، فإنه ليس أحد من عبادي أنصبه للحساب، وأقيم عليه عدلي إلا عذبته من غير أن أظلمه. وبشر الخطائين: أنه لا يتعاظمني ذنب أن أغفره، وأتجاوز عنه»[٢].

قال قتادة: من أُعطي مالًا أو جمالًا أو علمًا أو ثيابًا ثم لم يتواضع فيه كان عليه وبالًا يوم القيامة..

والعُجب قد يؤدي أيضًا إلى الحرمان من الجنة.. قال تعالى: ﴿ **تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾** ﴾ [القصص:٨٣]. فالرجل -كما يقول علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- ليعجبه من شراك نعله أن يكون أجود من شراك نعل صاحبه فيدخل في قوله تعالى: ﴿ **تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ** ﴾، وهذا محمول -كما يقول ابن كثير- على ما إذا أراد بذلك الفخر والتطاول على غيره.

---

(١) جامع العلوم والحكم (ص ١١٥).

(٢) الزهد للإمام أحمد (برقم:٣٧٦).

عدم الثبات أمام الفتن:

أورد ابن الجوزي في كتابه «بحر الدموع» قصة عالم كان في طريقه للحج مع تلامذته، فافتتن بنصرانية رآها في مزرعة لوالدها، فترك تلامذته وتنصر، وظل يرعى الخنازير كصداق لتلك النصرانية، وعند عودة تلامذته من رحلتهم ذهبوا إليه، وحاولوا معه فاستجاب لهم في آخر الأمر، وعاد إلى إسلامه وعبادته.... يقول هذا الرجل معللًا سبب ما حدث له: كنت ماشيًا في بعض الأزقة وإذا برجل نصراني قد لصق بي، فقلت له: ابعد عني عليك لعنة الله، فقال: ولِمَ؟ قلت: أنا خير منك.. فالتفت النصراني وقال: وما يدريك أنك خير مني، وهل تدري ما عند الله حتى تقول هذا الكلام؟! وقد بلغني بعد ذلك أن الرجل النصراني قد أسلم وحسن إسلامه ولزم العبادة، فعاقبني الله بما رأيتم، نسأل الله العافية في الدنيا والآخرة[١].

عدم رضا الله:

يقول ابن عطاء: أصل كل معصية وغفلة وشهوة؛ الرضا عن النفس، وأصل كل طاعة ويقظة وعفة؛ عدم الرضا منك عنها، ولأن تصحب جاهلًا لا يرضى عن نفسه خير لك من أن تصحب عالمًا يرضى عن نفسه، فأي علم لعالم يرضى عن نفسه، وأي جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه؟

«خلاصة ما ترمي إليه هذه الحكمة أن السبيل إلى رضا الله يتمثل في اتهام السالك نفسه وعدم رضاه عنها، وأن السبيل إلى سخط الله يتمثل في إعجاب السالك بنفسه ورضاه عنها.

(١) بحر الدموع من (ص ٨٢ – ٨٧) باختصار.

ويستشهد بقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [النساء:٤٩].

فالاستفهام هنا استنكاري، أي ألا ترى إلى قباحة شأنهم إذ يمدحون أنفسهم، ويعبرون عن إعجابهم بها ورضاهم عنها؟! وأصرح من هذا قوله تعالى: ﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴿٣٢﴾ ﴾ [النجم:٣٢].

أي لا تحكموا لها بالصلاح والسمو عن الزغل والشوائب، ولا تمدحوها وتثنوا عليها بما قد تتوهمون، فإن الله أعلم بما في نفوسكم منكم.

إن منبع الانحراف والضلال بأنواعه في الإنسان أن يكون راضيًا عن نفسه، معجبًا بها مبررًا لجموحاتها، وعندئذ لا بد أن تتحول معارفه وعلومه كلها مهما كثرت وتنوعت إلى جنود خاضعة لسلطان نفسه، ولا بد أن تكون ألسنة تبرير لأهوائها وانحرافاتها.

ألا فليعلم الناس جميعًا أن النفس البشرية إن لم تتهذب فلسوف يكون أصحابها أحط من الوحوش في بغيهم ومضرب المثل في عسفهم وجورهم»[(١)].

وينقل ابن القيم عن بعض العارفين قوله: متى رضيت عن نفسك وعملك لله، فاعلم أنه غير راضٍ عنك، ومن عرف أن نفسه مأوى كل عيب وشر، وعمله عُرضة لكل آفة ونقص، كيف يرضى لله نفسه وعمله؟!

ثم يستطرد قائلًا:

ولا يكمل هذا المعنى حتى تربأ بنفسك عن تعيير المقصرين، فلعل تعييرك

(١) شرح الحكم العطائية للبوطي (٢/ ٦٧- ٧٩) باختصار.

لأخيك بذنبه أعظم إثمًا من ذنبه، وأشد من معصيته، لما فيه صَولة الطاعة، وتزكية النفس، وشكرها، والمنادي عليها بالبراءة من الذنب، وأن أخاك باء به.

ولعل كسْرته بذنبه وما أحدث له من الذلة والخضوع، والإزراء على نفسه، والتخلص من مرض الدعوى، والكبر والعجب، ووقوفه بين يدي الله ناكس الرأس، خاشع الطرف، منكسر القلب: أنفع له، وخير من صولة طاعتك، وتكثُّرك بها والاعتداد بها، والمنة على الله وخلقه بها.. فما أقرب هذا العاصي من رحمة الله! وما أقرب هذا المُدِلّ من مقت الله.

فذنب تَذل به لديه، أحب إليه من طاعة تُدِل بها عليه. وإنك إن تبيت نائمًا وتصبح نادمًا، خير من أن تبيت قائمًا وتصبح معجبًا، فإن المعجب لا يصعد له عمل، وإنك وإن تضحك وأنت معترف، خير من أن تبكي وأنت مُدلّ، وأنين المذنبين أحب إلى الله من زجل المسبحين المُدلّين، ولعل الله أسقاه بهذا الذنب دواء استخرج به داءً قاتلًا هو فيك ولا تشعر(١).

... فإن كان العجب بمثل هذه الخطورة ومن قبله الرياء كذلك، أفلا يستحقان منا شدة الانتباه إليهما، والعمل على جهاد النفس على لزوم الصدق والإخلاص؟!

أخي: إن العجب والرياء من أخطر صور الشرك الخفي...

.. نعم، إن الشرك الظاهر بأنواعه وأشكاله المختلفة مثل التوجه بالعبادة لغير الله، واعتقاد النفع والضر في غيره من أولياء وكهان، وشدّ الرحال إلى الأضرحة، والطواف حولها، والذبح لغير الله و...

---

(١) تهذيب مدارج السالكين (ص: ١١٩ ، ١٢٠).

كل هذا خطير جدًّا، ومن أكبر الكبائر، وقد يُخرج صاحبه من الإسلام، وينبغي أن يتم التنبيه عليه حتى تُستأصل شأفته...

ولكن ألا ينبغي كذلك التنبيه على خطورة الشرك الخفي الذي قد لا يسلم منه العلماء والعباد والدعاة وجميع الناس؟!

ألم يقل لنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ ﴾ [الأنعام:١٢٠]؟!

فإن كنت في شك من خطورة هذا الشرك الخفي وأنه من الكبائر؛ فاقرأ معي قصة صاحب الجنتين في سورة الكهف وما حدث له، وتعقيبه على تدمير زرعه وجناته بقوله: ﴿ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴿٤٢﴾ ﴾ [الكهف:٤٢].

فما نوع الشرك هنا؟!!

أليس شركًا بالنفس واغترارًا بها؟!

وسائل جهاد النفس
على لزوم الصدق والإخلاص

هناك وسائل يستطيع العبد من خلالها أن يجاهد نفسه على لزوم الصدق والإخلاص، وذلك من خلال محورين: **الأول**: معرفة حق الله على عباده، **والثاني**: اليأس من النفس.

المحور الأول:

معرفة حق الله على عباده

هذا هو مفتاح الطريق وبدونه لن نستطيع أن نضع أنفسنا في حجمها الطبيعي... والله أعلم.

والمستهدف منه: ألا يرى أحدنا لنفسه حقًّا على الله لأجل عمله الصالح، فحقوق الله تعالى أعظم من أن يقوم بها العباد، ونعمه أكثر من أن تُحصى، وأنه لا يستوجب أحدنا بسعيه نجاحًا ولا فلاحًا، وعمل أحدنا لا يدخله الجنة أبدًا ولا ينجيه من النار.

.. ولن نستطيع تحقيق هذا المستهدف إلا إذا عرفنا حق الله على عباده وأجبنا عن سؤال يقول: أين نحن من أداء هذا الحق؟!

يقول ابن القيم:

لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ على عبده نوعان من الحقوق لا ينفك عنهما.

أحدهما: القيام بأمره ونهيه اللذين هما محض حقه علينا.

والثاني: شكر نعمه التي أنعم الله بها عليه.

فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يطالبه بشكر نعمه والقيام بأمره.

فبالنسبة لأمره سبحانه ونهيه: فإن الدين ليس بمجرد ترك المحرمات الظاهرة، بل بالقيام مع ذلك بالأوامر المحبوبة لله.. مثل: الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصيحة لله ورسوله وعباده، ونصرة الله ورسوله ودينه وكتابه.. وأقل الناس دينًا وأمقتهم إلى الله من ترك هذه الواجبات وإن زهد في الدنيا كلها[1].

هذا بالنسبة لحق الله وأوامره ونواهيه.

أما حق الله في نعمه على عباده فهذا أمر يحتاج إلى بعض البيان والتفصيل.

فالله عَزَّوَجَلَّ أنعم على كل واحد منا بنعم لا تُعد ولا تُحصى.

منها نعم الإيجاد من العدم: إنسانًا سويًّا عاقلًا لك عين ترى وأذن تسمع، وعقل يفكر، وقلب ينبض، ورئة تستنشق الهواء، وكليتان تنقيان الدم من السموم، ويدان تبطشان، ورجلان تمشي بهما، وفم وأسنان وحواس، وأجهزة للمناعة والامتصاص والإخراج، والهضم، وغدد صماء، و....إلخ.

وإذا أردت أن تعرف قيمة نعمة واحدة من هذه النعم فأغمض عينيك أو سد

---

(١) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين (ص ٢٣٠، ٢٣١).

أذنيك أو امنع يديك عن الحركة، ثم تأمل تأثير ذلك عليك...

انظر إلى أهل البلاء لتعرف معنى العافية، تذكر المطروحين في الطريق، ومرضى المستشفيات.. تذكر المشلول والأبكم والأصم و...

ومن النعم كذلك: نعم الإمداد: إمداد كل عضو في جسمك وكل خلية فيه بما يمكنه من الاستمرار في أداء عمله.

ومن النعم: الحفظ الدائم لهذه الأعضاء.

ومنها نعم التسخير: تسخير الوالدين للاعتناء بك وتربيتك، وتسخير الأرض والشمس والهواء والريح والطعام وسائر أعضائك لك.

ومن النعم أيضًا: نعم الهداية إلى الإسلام وإلى الإيمان والثبات عليهما.

ومنها نعم العصمة: من الكفر وعبادة الأوثان.. من أن تكون هندوسيًّا أو يهوديًّا أو نصرانيًّا، وكذلك العصمة من سائر الذنوب: كالزنى واللواط والقتل والسرقة وشرب الخمر والربا وإدمان المخدرات و...إلخ، فكل معصية تحدث على الأرض ولا تفعلها، تحمل في طياتها عصمة لك من الله عَزَّوَجَلَّ.

ومن النِّعمِ أيضًا: نعمة الأمن والستر.

ومنها سبق الفضل والاجتباء: فأنا وأنت لم نختر لأنفسنا أن نكون في هذا العصر، أو نكون من أبوين مسلمين، فرحمته سُبْحَانَهُوَتَعَالَى وفضله علينا سبق وجودنا، فلم يشأ أن يخلقنا في زمن عاد أو ثمود أو من آل فرعون، ولم يخلقنا كذلك من أبوين يهوديين أو يعبدان الصليب أو يسجدان للبقر، ولم يجعلنا في أماكن الفتن والاضطهاد..

نِعمٌ كثيرة لا تُعد ولا تُحصى: ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [لقمان:٢٠].

فما حق هذه النِّعم؟!

لو افترضنا أن كل نعمة من هذه النعم تحتاج إلى ساعة من السجود لله عَزَّوَجَلَّ كل يوم لتستمر في أداء دورها... إما أن تسجد هذه الساعة أو تمتنع هذه النعمة عنك، فالقلب سيتوقف، والعين لن ترى بها، والكبد لن يعمل، والكلية لن تُنقى الدم، والنخاع لن يفرز خلايا الدم، وخلايا الجسم لن تمتص السكر.. والبول سيُحبس، والدم لن يتأكسد، والغدد الصماء ستوقف إفرازها.. ولن نتمكن من السماع أو الكلام أو الشم أو اللمس.. المعدة سترفض استقبال الطعام، والعضلات سترتخي، والنوم لن يأتي....

لو افترضنا ذلك في كل ما أنعم الله به علينا... لوجدنا أننا نحتاج إلى مئات بل آلاف الساعات نسجد فيها لله كل يوم لنؤدي جزءًا يسيرًا من حقه علينا فيما حبانا به من نعم... جاء في الحديث: «**لَوْ أَنَّ رَجُلًا يَخِرُّ مِنْ يَوْمِ وُلِدَ إِلَى يَوْمِ يَمُوتُ هَرِمًا فِي مَرْضَاةِ اللهِ لَحَقَرَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[١].

فمهما فعلنا فلن نوفِّي حق الله علينا، بل إن كل يوم تشرق فيه الشمس يزداد حق الله ودينه المستحق علينا بإمداداته المستمرة ونعمه المتوالية، ومهما أدينا من طاعات فلن نوفي بها ولو جزءًا يسيرًا من هذا الدين.. تخيل أن رجلًا قد داينك بمليون دينار وتريد أن تُعطيه حقه، فاجتهدت في العمل حتى استطعت أن تعطيه كل يوم ربع درهم.. هل تظن أنك بعملك هذا واجتهادك هذا تستطيع أن تقضي

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢٩/ ١٩٦ برقم:١٧٦٤٩).

دينك؟! وماذا لو ازداد الدين أكثر وأكثر؟!!

أخرج ابن المبارك في الزهد عن كعب الأحبار قال:

والله إن لله لملائكة قيامًا منذ خلقهم الله، ما ثنوا أصلابهم وآخرين ركوعًا ما رفعوا أصلابهم، وآخرين سجودًا ما رفعوا رؤوسهم حتى يُنفخ في الصور النفخة الآخرة. فيقولون جميعًا: سبحانك وبحمدك ما عبدناك ككُنه ما ينبغي لك أن تعبد، ثم قال: والله لو أن لرجل يومئذٍ كعمل سبعين نبيًّا لاستقل عمله من شدة ما يرى يومئذٍ[١].

فلو ناقش الله عَزَّوَجَلَّ أحدًا في حقه عليه وحاسبه على ذلك لهلك مهما كانت أعماله، قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ عُذِّبَ**»[٢].

ولو عذب الله أهل سماواته وأرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم.

فمهما عملنا واجتهدنا فلن يكون عوض هذا العمل النجاة من النار والفوز بالجنة؛ لذلك قال ﷺ لصحابته:

«**لَنْ يُنْجِيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ**»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ بِرَحْمَتِهِ**»[٣].

فمن طولب بالشكر لم تفِ أعماله كلها ولن تفي بشكر بعض هذه النعم، وستبقى سائر النعم لا يقابلها شكر فيستحق صاحبها العذاب بذلك.

---

(١) الزهد لابن المبارك (ص ٧٥ رقم:٢٢٥).

(٢) رواه البخاري (٨/ ١١١ برقم: ٥٦٣٦)، ومسلم (٤/ ٢٢٠٤ برقم: ٢٨٧٦).

(٣) رواه البخاري (٨/ ٩٨ برقم: ٦٤٦٣ برقم: ٦٤٦٣)، ومسلم (٤/ ٢١٦٩ برقم: ٢٨١٦).

عن ابن عمر مرفوعًا: «**إِنَّ الرَّجُلَ يَأْتِي يَوْمَ القِيَامَةِ بِالعَمَلِ لَوْ وُضِعَ عَلَى جَبَلٍ لَأَثْقَلَهُ، فَتَقُومُ النِّعْمَةُ مِنْ نِعَمِ اللهِ فَتَكَادُ أَنْ تَسْتَنْفِذَ ذَلِكَ إِلَّا أَنْ يَتَطَاوَلَ اللهُ بِرَحْمَةٍ**»[١].

فمن استعظم عمله ورأى أن له حقًّا على الله به، طالبه سبحانه بحقه عليه.

عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا عن جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ:

«إِنَّ للهِ عَبْداً مِنْ عَبِيدِهِ عَبْدَ اللهَ تعالى خَمْسَمِائَةِ سَنَةٍ عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ فِي الْبَحْرِ، عَرْضُهُ وَطُولُهُ ثَلَاثُونَ ذِرَاعاً فِي ثَلَاثِينَ ذِرَاعاً، والبَحرُ مُحِيطٌ بِهِ أَرْبَعَةُ آلَافِ فَرْسَخٍ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ، وَأَخْرَجَ اللهُ لَهُ عَيْنًا عَذْبَةً بِعَرْضِ الْأُصْبَعِ تَبُضُّ بِمَاءٍ عَذْبٍ فَتُسْتَنْقَعُ فِي أَسْفَلِ الْجَبَلِ، وَشَجَرَةَ رُمَّانٍ تُخْرِجُ كُلَّ لَيْلَةٍ رُمَّانَةً فَتُغَذِّيَهُ يَوْمَه، فَإِذَا أَمْسَى نَزَلَ فَأَصَابَ مِنَ الْوَضُوءِ وَأَخَذَ تِلْكَ الرُّمَّانَةَ فَأَكَلَهَا ثُمَّ قَامَ إِلَى صَلَاتِهِ، فَسَأَلَ رَبَّهُ عَزَّوَجَلَّ عِنْدَ وَقْتِ الْأَجَلِ أَنْ يَقْبِضَهُ سَاجِدًا وَأَنْ لَا يَجْعَلَ لِلْأَرْضِ وَلَا لِشَيْءٍ يُفْسِدُهُ عَلَيْهِ سَبِيلًا حَتَّى بَعَثَهُ وَهُوَ سَاجِدٌ قَالَ: فَفَعَلَ، فَنَحْنُ نَمُرُّ عَلَيْهِ إِذَا هَبَطْنَا وَإِذَا عَرَجْنَا، فَنَجِدُ لَهُ فِي الْعِلْمِ أَنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُوقَفُ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ فَيَقُولُ لَهُ الرَّبُّ: أَدْخِلُوا عَبْدِي الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، فَيَقُولُ: رَبِّ بَلْ بِعَمَلِي، فَيَقُولُ الرَّبُّ: أَدْخِلُوا عَبْدِي الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، بَلْ بِعَمَلِي، فَيَقُولُ الرَّبُّ: أَدْخِلُوا عَبْدِي الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، فَيَقُولُ: رَبِّ بَلْ بِعَمَلِي، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ لِلْمَلَائِكَةِ: قَايِسُوا عَبْدِي بِنِعْمَتِي عَلَيْهِ وَبِعَمَلِهِ فَتُوجَدُ نِعْمَةُ الْبَصَرِ قَدْ أَحَاطَتْ بِعِبَادَةِ خَمْسِ مِائَةِ سَنَةٍ وَبَقِيَتْ نِعْمَةُ الْجَسَدِ فَضْلًا عَلَيْهِ فَيَقُولُ: أَدْخِلُوا عَبْدِي النَّارَ قَالَ: فَيُجَرُّ إِلَى النَّارِ فَيُنَادِي: رَبِّ بِرَحْمَتِكَ أَدْخِلْنِي الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ: رُدُّوهُ فَيُوقَفُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَيَقُولُ: يَا عَبْدِي، مَنْ خَلَقَكَ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا؟ فَيَقُولُ: أَنْتَ يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: كَانَ ذَلِكَ مِنْ قِبَلِكَ أَوْ بِرَحْمَتِي؟ فَيَقُولُ: بَلْ

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٢/ ١٦١).

بِرَحْمَتِكَ. فَيَقُولُ: مَنْ قَوَّاكَ لِعِبَادَةِ خَمْسِ مِائَةِ عَامٍ؟ فَيَقُولُ: أَنْتَ يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: مَنْ أَنْزَلَكَ فِي جَبَلٍ وَسَطَ اللُّجَّةِ وَأَخْرَجَ لَكَ الْمَاءَ الْعَذْبَ مِنَ الْمَاءِ الْمَالِحِ وَأَخْرَجَ لَكَ كُلَّ لَيْلَةٍ رُمَّانَةً وَإِنَّمَا تَخْرُجُ مَرَّةً فِي السَّنَةِ، وَسَأَلْتَنِي أَنْ أَقْبِضَكَ سَاجِدًا فَفَعَلْتُ ذَلِكَ بِكَ؟ فَيَقُولُ: أَنْتَ يَا رَبِّ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: فَذَلِكَ بِرَحْمَتِي وَبِرَحْمَتِي أُدْخِلُكَ الْجَنَّةَ، أَدْخِلُوا عَبْدِيَ الْجَنَّةَ فَنِعْمَ الْعَبْدُ كُنْتَ يَا عَبْدِي، فَيُدْخِلُهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ، قَالَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّمَا الْأَشْيَاءُ بِرَحْمَةِ اللَّهِ- تَعَالَى- يَا مُحَمَّدُ»(١).

من هنا كان من اليسير إدراك أن حق الله على عباده أن يُطاع فلا يُعصى، وأن يُذكر فلا يُنسى، وأن يُشكر فلا يُكفر، وإن فعلوا ذلك فلن يوفوه حقه.

«فمن نظر في هذا الحق الذي لربه عليه عَلِم اليقين أنه غير مؤدٍّ له كما ينبغي، وأنه لا يسعه إلا عفو ربه ومغفرته، وأنه إن أحيل إلى عمله هلك، فالعمل مهما كان حجمه لا يمكن أن يطلب به عِوض أو مقابل، فأدنى نعمة من النعم تستنفد أعمال العبد كلها.

مر موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ برجل يدعو ويتضرع، فقال: يارب ارحمه فإني قد رحمته، فأوحى الله إليه: لو دعاني حتى تنقطع قواه ما استجبت له حتى ينظر في حقي عليه.

يقول ابن القيم: فمشاهدة العبد النعمة والواجب لا تدع له حسنة يراها، ولا يزال مزريًا على نفسه، ذامًّا لها، وما أقربه من الرحمة إذا أعطى هذين المشهدين حقهما، والله المستعان»(٢).

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ٢٧٨ برقم: ٧٦٣٧).
(٢) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين (ص ٢٣٠، ٢٣١).

بين العدل والإحسان:

قد يحاسب الله عبدًا من عباده يوم القيامة بالعدل، وقد يحاسب آخر بالإحسان، كل هذا متوقف على حالة العبد وكيفية دخوله على الله عَزَّوَجَلَّ.. والله أعلم.

فمن دخل على الله عَزَّوَجَلَّ وكأنه يحمل دفترًا وقد سجل فيه كل أعماله ويريد عوضًا عنها، فقد عرَّض نفسه لمناقشة الحساب بل والعذاب والعياذ بالله.

ومن دخل على الله تعالى من باب الإفلاس التام وعدم رؤية أعماله واستقلاله لها وشعوره بالتقصير الشديد في أدائه لحق الله، واليقين بأنه ليس له أي حق على الله عَزَّوَجَلَّ بعمله، وسؤاله الجنة بطريق الاستجداء؛ مع كونه عاملًا بما أُمر منهيًّا عما نهي.. هذا العبد وبهذا الشعور قد عرّض نفسه لتلقي رحمات الله عَزَّوَجَلَّ وعدم مناقشته لدين النعم.

لماذا العمل؟!

قد يقول قائل: ولِمَ العمل إذن وهو ليس سببًا في النجاة من النار والدخول إلى الجنة؟!

إننا جميعًا نحن المسلمين: الرسل والأنبياء والصديقين والشهداء وكل من شهد شهادة التوحيد علينا أن نسعى إلى نيل رحمة الله ومغفرته... والمغفرة هنا ليست مغفرة ذنوب فقط بل ومغفرة التقصير في القيام بحقوقه أيضًا وعدم قدرتنا على سداد دينه علينا.

.. هذه الرحمة، وهذه المغفرة أخبرنا سُبْحَانَهُوَتَعَالَى أنها تحتاج منا إلى اجتهاد لنيلها، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف:٥٦].

وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢١٨ ﴾ [البقرة:٢١٨].

فينبغي علينا أن نعمل العمل ونجتهد فيه لنرضي مولانا لعله يتفضل علينا بالمغفرة وعدم مناقشة الحساب أولًا ثم الجنة ثانيًا... لذلك كان التوجيه القرآني بالمسارعة إلى الخيرات لنيل المغفرة أولًا ثم الجنة بعد ذلك قال تعالى: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ﴾ [آل عمران:١٣٣].

ويؤكد ابن رجب على هذا فيقول: فيتعين على العبد المؤمن الطالب للنجاة من النار ولدخول الجنة، وللقرب من مولاه والنظر في دار كرامته: أن يطلب ذلك بالأسباب الموصلة إلى رحمة الله وعفوه ورضاه ومحبته.. فبها ينال ما عند الله من الكرامة.

إذ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ قد جعل للوصول إلى ذلك أسبابًا من الأعمال التي جعلها موصلة إليها، وليس ذلك موجودًا إلا فيما شرعه لعباده على لسان رسوله، وأخبر عنه رسوله أنه يقرب إلى الله ويوجب رضوانه ومغفرته وأنه مما يحبه الله، أو أنه من أحب الأعمال إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فقد قال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ:

﴿ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦ ﴾ [الأعراف:٥٦].

وقال تعالى: ﴿ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ١٥٦ ﴾ [الأعراف:١٥٦].

فالواجب على العبد البحث عن خصال التقوى وخصال الإحسان التي شرعها الله في كتابه، أو على لسان رسوله ﷺ، والتقرب بذلك إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فإنه لا طريق للعبد يوصله إلى رضا مولاه وقربه ورحمته وعفوه ومغفرته سوى ذلك[١].

فالعمل ما هو إلا طريق لنيل المغفرة والرحمة؛ لذلك كان حال المؤمنين أنهم كما وصفهم الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [المؤمنون:٦٠]، أي يفعلون ويفعلون من الطاعات والقربات، ويخافون ألا يتقبلها الله منهم لآفة في قلوبهم فيعاملهم بعدله فيهلكوا.

يقول الحسن البصري في هذه الآية: كانوا يعملون أعمال البر وهم مشفقون ألا ينجيهم ذلك من عذاب الله[٢] عَزَّوَجَلَّ.

وقال: «والله لقد أدركت أقوامًا... كانوا إذا عملوا الحسنة دأبوا في شكرها وسألوا الله أن يقبلها، وإذا عملوا السيئة أحزنتهم وسألوا الله أن يغفرها، فما زالوا كذلك على ذلك، فوالله ما سلموا من الذنوب ولا نجوا إلا بالمغفرة...»[٣].

والخلاصة:

يقول ابن رجب: فإذا تقرر هذا الأصل العظيم وعُلم أن العمل بنفسه لا يوجب النجاة من النار ولا دخول الجنة، فضلًا عن أن يوجب بنفسه الوصول إلى ما في الجنة من منازل المقربين والنظر إلى وجه رب العالمين، وإنما ذلك برحمة الله وفضله ومغفرته.

---

(١) المحجة في سير الدلجة.

(٢) الزهد لأحمد بن حنبل (ص:٢٣٠ برقم: ١٦٣٨).

(٣) الزهد لأحمد بن حنبل (ص:٢٣١ برقم: ١٦٤٣).

فذلك يوجب على المؤمن أن ينقطع نظره عن عمله بالكلية، وألا ينظر إلا إلى فضل الله ومنته، كما سُئل بعض العارفين: أي الأعمال أفضل؟ قال: رؤية فضل الله[١].

وليكن شأننا في ذكر الثواب استشعار فضل الله تعالى وكرمه لا لقصد المقابلة.

(١) المحجة في سير الدلجة.

الوسائل العملية لترسيخ معنى حق الله على عباده

على كل واحد منا أن يبدأ في إحصاء نِعم الله عليه:

ولو سجَّلها لكان أفضل له، فذكر النعم شكر، ولقد طالبنا سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بذلك لنستشعر عظيم فضله علينا، ومدى تقصيرنا في حق شكره.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ٣ ﴾ [فاطر:٣].

ولقد كان رسول الله ﷺ يُعظِّم دقيق النعم، وكذلك كان صحابته الكرام ومن تبعهم بإحسان، فهذا الفضيل وابن عيينة يجلسان حتى الصباح يتذاكران النعم فيقول سفيان: أنعم الله علينا في كذا، فعل بنا كذا، فعل بنا كذا...[١].

فعلينا أن نداوم على تذكر نعم الله علينا بخاصة بعد كل توفيق يصاحبنا في القيام بعمل كصيام رمضان أو صلة لرحم أو.. إلخ.

ماذا نفعل عند ورود النعمة؟

علينا أن نسارع بشكر الله عَزَّوَجَلَّ عليها لنغلق الباب أمام النفس للإعجاب والفرح، وعلينا إظهار التواضع لله عَزَّوَجَلَّ، تأمل رد فعل سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، عندما

---

(١) الشكر لابن أبي الدنيا (ص:٤١ برقم:١١٤).

سمع النملة تُحذر أخواتها من جنوده: ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [النمل:١٩].

وكان النبي ﷺ إذا جاءه أمر يَسُرّه خرَّ لله ساجدًا شكرًا له عَزَّوَجَلَّ.

وإليك هذه القصة التي تعلمنا كيف نستقبل النعم:

لبس النجاشي خلقانًا وجلس على التراب يوم أن بلغه نصر النبي ﷺ في بدر، فقال جعفر: ما بالك جالسًا على التراب ليس تحتك بساط وعليك هذه الأخلاق، قال: إنما نجد فيما أنزل الله على عيسى ﷺ: أن حقًّا على عباد الله أن يحدثوا لله تواضعًا عند كل ما أحدث لهم من نعمة، فلما أحدث الله لنا نصر نبيه عَلَيْهِ السَّلَامُ، أحدثت لله هذا التواضع(١).

ويوضح ابن القيم بعضًا من حكم ضرورة المسارعة في الشكر بعد ورود النعم فيقول: حدوث النعم يوجب فرح النفس وانبساطها، وكثيرًا ما يجر ذلك إلى الأشر والبطر، والسجود ذل لله، وعبودية وخضوع.. فإذا تلقى به نعمته كان جديرًا بدوام تلك النعمة، وإذا تلقاها بالفرح الذي لا يحبه الله والأشر والبطر، كما يفعله الجهال عندما يحدث لهم من النعم، كانت سريعة الزوال، وشيكت الانتقال وانقلبت نقمة، وعادت استدراجًا(٢).

---

(١) الزهد لابن المبارك من رواية نعيم (٢/ ٥٣).

(٢) عدة الصابرين (ص ٢٣٠).

علينا أن نُكثر حمد الله، وأن ننسب كل فضل إليه، وأن نربط كل نعمة به سبحانه:

قال رسول الله ﷺ: «**مَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَى عَبْدٍ نِعْمَةً فَعَلِمَ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ إِلَّا كُتِبَ لَهُ شُكْرُهَا**»[1]. وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿ **إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا** ﴿٣﴾ ﴾ [الإسراء:٣] لم يأكل شيئًا قط إلا حمد الله عليه، ولم يشرب شرابًا قط إلا حمد الله عليه، ولم يمشِ مشيًا إلا حمد الله عليه، فأثنى الله عليه إنه كان عبدًا شكورًا[2].

وعلى كل منا ألا يقول: فعلت كذا وكذا، ولكن ليقل: بفضل الله فعلت كذا، وعلينا ألا نسمح لأحد بأن يحمدنا على أفعالنا، بل يحمد الله فإن النعم كلها منه.

وكان عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شديد العناية بذلك.. كتب مرة كتابًا لأهل الموسم جاء فيه: ولا تحمدوا على ذلك كله إلا الله، فإنه إن وكلني إلى نفسي كنت كغيري[3].

كثرة الاستغفار بخاصة بعد أداء الطاعات:

فالاستغفار بعد الطاعة يُعد بمثابة إعلان وإثبات لتقصيرنا في القيام بتلك الطاعة وأنها لا تليق بجلال الله وكماله، ولا توفِّي حقه علينا، ومن فوائده كذلك أنه يغلق الباب أمام النفس لرؤية العمل واستعظامه وطلب العوض عنه.

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (برقم: ٤٧)، والحاكم في المستدرك (١/ ٦٩٥ برقم: ١٨٩٤).

(٢) الشكر لابن أبي الدنيا (برقم:٢٠٦).

(٣) شرح حديث (ما ذئبان جائعان) لابن رجب (ص ٤٢).

يقول ابن القيم:

وأرباب العزائم والبصائر أشد ما يكونون استغفارًا عقيب الطاعات، لشهودهم تقصيرهم فيها، وترك القيام لله بها كما يليق بجلاله وكبريائه، وأنه لولا الأمر لما أقدم أحدهم على مثل هذه العبودية، ولا رضيها لسيده، وقد أمر الله تعالى وفده وحجاج بيته بأن يستغفروا عقيب إفاضتهم من عرفات وهو من أَجَلّ المواقف وأفضلها، قال تعالى: ﴿ **ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴿١٩٩﴾ ﴾ [البقرة:١٩٩].

وقبل انتهاء الليل وما كان فيه من قيام ودعاء وبكاء علينا بالاستغفار كما قال تعالى: ﴿ **وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ** ﴿١٧﴾ ﴾ [آل عمران:١٧].

... فهذا شأن من عرف ما ينبغي لله ويليق بجلاله من حقوق العبودية وشرائطها[١].

(١) تهذيب مدارج السالكين (١١٨ ، ١١٩) بتصرف يسير.

المحور الثاني في جهاد النفس على لزوم الصدق والإخلاص:

«اليأس من النفس»

الجانب الآخر في جهاد النفس على لزوم الصدق والإخلاص؛ هو العمل على اليأس من الأمن تجاهها. والمقصد من ذلك هو عدم حسن الظن بها أو الركون إليها، ودوام الحذر منها، واليقين بأنها لن تدفعنا في يوم من الأيام لفعل الخير ابتغاء مرضات الله، فالنفس -أي نفس- أمارة بالسوء كما أخبرنا عنها ربنا عَزَّوَجَلَّ، ولقد كان الرسول ﷺ، دائم التحذير من شرها....

فقد قال ﷺ لحصين بن المنذر: «**قُلِ: اللَّهُمَّ أَلْهِمْنِي رُشْدِي وَأَعِذْنِي مِنْ شَرِّ نَفْسِي**»[(١)].

وفي خطبه كان يقول: «... **وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا**»[(٢)].

وقال لفاطمة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا يومًا: «**مَا يَمْنَعُكِ أَنْ تَسْمَعِي مَا أُوصِيكِ بِهِ، أَنْ تَقُولِي إِذَا أَصْبَحْتِ وَأَمْسَيْتِ: يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ، أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، وَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ**»[(٣)].

---

(١) رواه الترمذي (٥/ ٥١٩ برقم: ٣٤٨٣) وقال: حديث غريب.

(٢) الحديث أصله في الصحيحين وهذه الجملة رواها ابن ماجة (١/ ٦٠٩ برقم: ١٨٩٢)، والترمذي (برقم: ١١٠٥) وقال: حديث حسن.

(٣) رواه البزار (١٣/ ٤٩ برقم: ٦٣٦٨)، والنسائي في الكبرى (٩/ ٢١٢ برقم: ١٠٣٣٠).

وكان ﷺ يقول في دعائه: «.... **وَإِنَّكَ إِنْ تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي، تَكِلْنِي إِلَى ضَيْعَةٍ وَعَوْرَةٍ، وَذَنْبٍ، وَخَطِيئَةٍ، وَإِنِّي لَا أَثِقُ إِلَّا بِرَحْمَتِكَ**»[١].

فلا بد أن نحذر أنفسنا وأن نتقي شرها، ونمقتها في الله، أو بمعنى آخر نمقت ما تدعونا إليه، ويعود علينا بالخسران بعد ذلك.. فالمقت بالأساس لأفعالها وليس لها؛ لأن الإنسان مفطور على حب نفسه، ومن أجل سعادتها في الدنيا والآخرة نجاهدها ونمقت ما تدعونا إليه.

.. وبهذا يمكن بفضل الله التوفيق بين معنى مقت النفس وحبها.

فإن قال قائل: ولماذا أمقت نفسي؟!

كان الجواب: لأنها تدعونا لسلوك سبيل الضلال، وتصرفنا عما يرضي الله، وتوقعنا فيما يبغضه.

إنها نفس -كما يقول الآجري- قليلة الاكتراث لأجل لا بد أن يغشى... زاهدة في دار نعيمها لا يفنى... محبة لأخلاق تعلم أنها تضرها غدًا.. ضاحكة مستبشرة ناعمة بما عنه مولاها نهى.. نفس يخف عليها السعي والكد في طلب الدنيا.. نفس تَلَذُّ بالفتور عن الخير الذي إليه مولاها دعا...

نفس وعدها الله بالمغفرة والفضل فلم تثق ولم ترضَ.. نفس تُرضي المخلوقين بسخط ربها، وعن رضا ربها تتوانى.

تظهر لك الزهد وهي راغبة، وتظهر لك الخوف وهي آمنة، وتفرح بحسن الثناء

---

(١) رواه أحمد (٣٥/ ٥٢٠ برقم: ٢١٦٦٦).

فتحمد صاحبه وتدنيه، ويثقل عليها من ذمها بحق نصحًا منه لها فتبغضه وتقصيه[1].

ويؤكد المحاسبي على نفس المعنى فيقول:

إن النفس لو تُركت لَمَا فعلتْ أي طاعة، وما تركتْ أي معصية.. لماذا؟!

لأن محبتها في خلاف ذلك.

فالعبد لا يكاد يأتي برًّا إلا شهوة نفسه في ضده، وليس معنى أنها أصبحت تؤدي بعض الطاعات بسهولة ويسر أنها تحب ذلك، بل إن قوة عزمك التي وهبك إياها المولى، والخوف من الآخرة قهرها، ولو وَجَدتْ منك فترة لرجعت إلى أحوالها ولرفضت الطاعة لله عَزَّوَجَلَّ.

ويضرب المحاسبي مثالًا لذلك فيقول:

كأسير من بلاد العدو، استأسرته، وفرَّقت بينه وبين ماله، وأهله وولده، وأرضه، وهو كان يريد أن يأسرك، فلم يزل بعد ما أمكنك منه يجاذبك إلى الرجوع إلى بلاده وينتظر منك غفلة ليقتلك أو يستأسرك فيرجع بك إلى منزله ووطنه، فلم تزل تضربه وتقهره حتى انقاد لك من الخوف وسارع إلى خدمتك، وأنت مع ذلك متخوف من أن يجد فرصة أو غرة فيرجع ويتركك ويرفض ما في يديه مما استرعيته من عملك... أكنت له حامدًا؟!

فكذلك النفس:

فقد كانت نفسك حريصة على الركون إلى الدنيا، وإيثارها على الآخرة، فكانت

---

(١) أدب النفوس للآجري باختصار (ص ١٦، ١٧).

تعمل جاهدة أن تستأسرك بهواها، فتكون به لها عاملًا، ولطريق نجاتك من الآخرة تاركًا، فأبى الله عَزَّوَجَلَّ إلا أن يوفقك ويسددك.. فقوّى ضعفك، ونور قلبك، وأعانك عليها حتى رفضت كثيرًا مما تهوى، وتركت كثيرًا مما تحب، وما انقادت إلى خلاف ذلك إلا بالكره والجبر.. ثم وهب لك زجرها ومعاتبتها، وقوّى عقلك على هواها.. ووفقك لدوام ترك إجابتها حتى أيست منك أن تنال محبتها، فأجابت مسرعة على غير انقلاب من طبعها ولا تغير في غريزتها، وأنت مع إجابتها لك متوقع لرجوعها.. تسأل الذي تولى معونتك عليها وقهرها: أن يديم لك ذلك ولا يسلبك وإلا وثبت عليك فترجع بك إلى جميع ما تحب وتهوى، فيكون في ذلك هلاكك في دنياك وآخرتك[١].

تذكر:

لو كان لك صاحبان حولك وأنت نائم، فأراد أحدهما أن يقتلك ومنعه الآخر.. فماذا ستكون مشاعرك نحوهما؟!

فكم من بلية أرادتها بك نفسك فعزم الله عَزَّوَجَلَّ لك على تركها، وأيقظك وأزال عنك غفلتك فعصمك منها. وكم من حق لله عَزَّوَجَلَّ قد هممت بتضييعه، فأبى الله عَزَّوَجَلَّ إلا أن وفقك لخلاف ما هممت به.

فلقد أوجب عليك المقت لنفسك والحذر منها، وترك إضافة العمل إليها بالحمد.. والحمد لربك عَزَّوَجَلَّ، والحمد له خالصًا وحده، والشكر له على منته بكل ما نلت من بر وطاعة[٢].

فمن عرف نفسه زال عنه العُجب، وعظم شكر الرب عَزَّوَجَلَّ، واشتد حذره منها،

---

(١) الرعاية لحقوق الله للمحاسبي (ص ٤٣٥، ٤٣٦).

(٢) المصدر السابق (ص ٤٣٨).

والثقة والطمأنينة إلى المولى عَزَّوَجَلَّ، والمقت لها والحب للمتفضل المنعم[(١)].

ألم يقل سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [النور:٢١]؟!

فأولى مقدمات أدب رياضة النفس كما يقول الماوردي:

ألا يسبق إلى حسن الظن بنفسه، فيخفى عنه مذموم شيمه، ومساوئ أخلاقه.. لأن النفس بالشهوات آمرة، وعن الرشد زاجرة[(٢)].

■ كيف كان الصالحون ينظرون إلى أنفسهم؟

يقول ابن القيم: ومقت النفس في ذات الله من صفات الصديقين، ويدنو العبد به من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في لحظة واحدة أضعاف ما يدنو به من العمل، ولقد تعبد رجل من بني إسرائيل ستين سنة في طلب حاجة فلم يظفر بها فقال في نفسه: والله لو كان فيك خير لظفرت بحاجتي، فأتي في منامه، فقيل له: أرأيت إزراءك على نفسك تلك الساعات فإنه خير من عبادتك تلك السنين[(٣)].

وقد كان رسول الله ﷺ يقول في دعائه: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي، وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي جِدِّي وَهَزْلِي، وَخَطَئِي وَعَمْدِي، وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**»[(٤)].

---

(١) المصدر السابق (ص ٤٣٨).

(٢) أدب الدنيا والدين (ص ٢٢٩).

(٣) إغاثة اللهفان (١/ ١٤١ ط. ١٤٢)

(٤) رواه البخاري (٨/ ٨٤ برقم: ٦٣٩٨)، ومسلم (٤/ ٢٠٨٧ برقم: ٢٧١٩) واللفظ له.

وأوحى الله تعالى لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**وَإِذَا ذَكَرْتَنِي فَاذْكُرْنِي وَأَنْتَ تَنْتَفِضُ أَعْضَاؤُكَ، وَكُنْ عِنْدَ ذِكْرِي خَاشِعًا مُطْمَئِنًّا، وَإِذَا ذَكَرْتَنِي فَاجْعَلْ لِسَانَكَ مِنْ وَرَاءِ قَلْبِكَ، وَإِذَا قُمْتَ بَيْنَ يَدِي فَقُمْ مَقَامَ الْعَبْدِ الحَقِيرِ الذَّلِيلِ، وَذمَّ نَفْسَكَ فَهِيَ أَوْلَى بِالذَّمِّ، وَنَاجِنِي حِينَ تُنَاجِنِي بِقَلْبٍ وَجِلٍ وَلِسَانٍ صَادِقٍ**»[1].

وقال سعيد بن عبد العزيز: بلغني أنه ما من كلمة كانت تقال لعيسى ابن مريم أحب إليه من أن يقال: كان هذا المسكين.. وكان من دعائه عَلَيْهِ السَّلَامُ: «اللهم إني أصبحت لا أملك ما أرجو، ولا أستطيع دفع ما أحاذر، وأصبح الأمر بيد غيري، وأصبحت مرتهنًا بعملي، ولا فقير أفقر مني».

وكان أبوبكر الصديق يقول: لو يعلم الناس ما أنا فيه لأهالوا عليّ التراب.

ومشى قوم خلف ابن مسعود فقال لهم: ارجعوا فإنها ذلة للتابع وفتنة للمتبوع.. وقال: لو تعلمون ما أعلم من نفسي لحثيتم على رأسي التراب.

وقال رجل لعمر بن عبد العزيز: يا أمير المؤمنين! كيف أصبحت؟ قال: أصبحت بطينًا، ملوثًا في الخطايا، أتمنى على الله الأماني...

وكان ابن المبارك يقول: أحب الصالحين، ولست منهم، وأبغض الطالحين وأنا شر منهم.

... وكان كثير من السلف يكره أن يُطلب منه الدعاء ويقول لمن يسأله الدعاء: أي شيء أنا[2]؟

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ١٤٣، ١٤٤).

(٢) شرح وبيان حديث « ما ذئبان جائعان « لابن رجب (٦٨، ٦٩).

الوسائل العملية لليأس من النفس

إدراك حقيقة الفقر إلى الله والإكثار من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله:

إن فقرنا إلى الله عَزَّوَجَلَّ فقر مطلق وذاتي، وملازم لنا في كل أحوالنا.

فقراء إليه في الإيجاد والإمداد والحفظ والرعاية والستر والأمن والهداية والتوفيق والثبات والعصمة.. فقراء إليه كذلك في دفع شر النفس وحب الدنيا والشيطان.

ولله المثل الأعلى؛ فإننا بدون قوة الله كالجهاز الكهربائي عندما ينقطع عنه التيار.. لا قيمة له.. فنحن بحاجة إلى الله في كل لحظة وطرفة عين.. وهذا هو المعنى الحقيقي لذكر: لا حول ولا قوة إلا بالله.. ولا تَحَوُّل لنا إلى طاعة إلا بالله، ولا عن المعصية أو الغفلة إلا بالله..

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [فاطر:١٥].

﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ﴾ [الملك:٢١].

﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [الحجرات:٧].

هذا الشعور بالفقر هو الذي دفع نبي الله إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن يقول: ﴿ وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [إبراهيم:٣٥].

ويوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [يوسف:٣٣].

وموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ **فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ** ﴿٢٤﴾ ﴾ [القصص:٢٤].

ومحمدًا ﷺ: «**يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**»[١].

وعباد الله الصالحين: ﴿ **وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ** ﴾ [الأعراف:٤٣].

﴿ **وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ** ﴿١٩٣﴾ ﴾ [آل عمران: ١٩٣].

فلنعمل على تذكر جوانب الفقر إلى الله في شتى المجالات، ولنبحث عنها في القرآن، ولنكثر من قول: «لا حول ولا قوة إلا بالله» كدليل إثبات وإقرار لهذا الفقر، ولنمد أيدينا إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فنسأله كل شيء نحتاجه.

قال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: يارب إنه لتُعرض لي الحاجة في الدنيا فأستحيي أن أسألك: قال: «**سَلْنِي حَتَّى مِلْحَ عَجِينِكَ، وَعَلَفَ حِمَارِكَ**».

.. فكل ما يحتاج إليه العبد إذا سأله من الله فقد أظهر حاجته فيه وافتقاره إلى الله، وذلك يحبه الله[٢].

وعلينا أن نستعين به -سبحانه- في كل أمورنا، ولنبدأ بالتوكل عليه قبل الشروع في أي عمل، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ **فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ** ﴾ [آل عمران:١٥٩].

التفكر في رسائل المنع والحرمان اليومية:

من رحمة الله بعباده حرمانهم من بعض نعمه عليهم ليستشعروا عظيم فضله

(١) رواه أحمد (١٩/ ١٦٠ برقم: ١٢١٠٧)، والترمذي (٤/ ٤٨٤ برقم: ٢١٤٠) وقال: حسن.

(٢) جامع العلوم والحكم لابن رجب (ص ٤٢٥).

وكرمه، ويدركوا مدى حاجتهم إليه في كل طرفة عين، وأنهم لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا؛ فيعيشوا في حقيقة ضعفهم، وعجزهم، وجهلهم، وفقرهم، فيزداد انكسارهم لربهم وفرارهم إليه متضرعين، متمسكنين، متخشعين، مستعينين به في كل كبيرة وصغيرة: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [الأعراف: ١٣٠].

■ من أشكال المنع:

أشكال المنع والحرمان كثيرة ومتعددة، ولا يكاد يمر يوم، إلا وللواحد منا نصيب فيها..

منها: عدم وجود همة لأداء الطاعة والتثاقل عنها... ومنها ضيق الصدر وتغير المزاج... ومنها تعسير الأمور وقلة التوفيق، ومنها المرض... ومنها الوقوع في المعاصي كصورة من صور منع العصمة، ومنها عدم استجابة الدعاء، ومنها عدم حضور القلب وفراره من صاحبه.. ومنها أشياء صغيرة جدًّا قد لا ننتبه إليها لحدوثها العارض كاختلاج القلب، وسقوط رمش في العين، وارتعاش اليدين.

كل هذا وغيره قد يحدث لنا يوميًّا، والمطلوب منا الوقوف عندها والتفكر فيها، لنستشعر مدى فقرنا إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وأننا به سبحانه لا بأنفسنا، فلو كانت لدينا قوة ذاتية لاستطعنا أن نمنع هذا الحرمان.

إن كثرة التفكر في رسائل المنع اليومية سيؤدي بنا كذلك إلى اليقين بأن أي فضل يصيبنا في هذه الحياة فمن الله وحده لاشريك له، وأنه ليس لأنفسنا أي سبب فيه؛ ومن ثم لا ننسب أي فضل إليها، ولن يقول أحدنا: أنا فعلت بل سيقول: بفضل الله فعلت، وسييأس من نفسه فلن يدعي بأنه يقدر على فعل كذا وكذا، ولن يقول

لشيء: إني فاعل ذلك، بل سيجعل كلامه ينطلق من استشعاره عظيم فضل الله عليه، وجهل نفسه وضعفها وفقرها الذاتي لمولاها.

ومن فوائد التفكر في رسائل المنع كذلك: عدم استعظام النفس، فرب معصية أورثت ذلًّا وانكسارًا خير من طاعة أورثت عجبًا واستكبارًا.

قال الحسن: «لو أن قول ابن آدم كله حق وفعله صواب لجُنَّ»(١)... أي يعجب بنفسه لدرجة الجنون.

ومنها كذلك: عدم الشعور بالأفضلية عن الآخرين، والرحمة بالمقصرين وعدم احتقارهم، فقد يحمل هذا المقصر قلبًا فيه ذلٌّ وانكسار لله عَزَّوَجَلَّ، وعدم رضا عن نفسه وعن أفعالها.. هذا القلب بلا شك قريب من رحمة الله ومؤهل للعودة إليه في أي وقت، أما قلبي وقلبك فقد لا يكون فيه مثل هذا الذل والانكسار؛ بل قد يكون فيه من الكبر والإعجاب بالنفس والغرور ما يجعله بعيدًا عن رحمة الله.. والله أعلم بالسرائر.

... نعم نحن نكره في العاصين معصيتهم لكننا في الوقت ذاته لا ينبغي أن نظن في أنفسنا بأننا أفضل منهم، فقلوبهم مستورة عنا ولا نعلم ما بداخلها، ولعل حسن خاتمة بعض هؤلاء، يؤكد هذه الحقيقة مع سوء خاتمة بعض من يدَّعون لأنفسهم الصلاح.. نسأل لنا ولجميع المسلمين حسن الخاتمة.

■ **ومن الفوائد الناتجة عن ملاحظة مواضع المنع والحرمان:** استصغار النفس وعدم الفرح والإعجاب بها أو السكون إليها عند أي فتح أو توفيق يصيب الواحد

---

(١) الزهد لأحمد بن حنبل (ص:٢١٦).

منا وليس معنى هذا عدم الفرح عند ورود النعم، بل نفرح ولكن ليكن منطلق فرحنا هو استشعار فضل الله علينا.. نفرح بالله كما قال تعالي: ﴿ **قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾** ﴾ [يونس:٥٨].

■ **ومنها كذلك الشعور بأنك مثل الآخرين:** تُحرم وتعاقب، فليس لك منزلة خاصة عند الله، كما جاء الرد في القرآن على بني إسرائيل عندما قالوا: ﴿ **نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ** ﴾ [المائدة:١٨].

فالمنع إذن يحمل خيرًا كثيرًا للعبد إذا ما تفكر فيه ولم يغفل عنه.

أخرج أبو نعيم في الحلية عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: «... **وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ مَنْ يُرِيدُ بَابًا مِنَ العِبَادَةِ فَأَكُفُّهُ عَنْهُ لَا يَدْخُلُهُ عُجْبٌ فَيُفْسِدُهُ ذَلِكَ... وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَا يُصْلِحُ إِيمَانَهُ إِلَّا الغِنَى وَلَوْ أَفْقَرْتُهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِك، وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ مَنْ لَا يُصْلِحُ إِيمَانَهُ إِلَّا الْفَقْرُ وَإِنْ بَسَطْتُ لَهُ أَفْسَدَهُ ذَلِك، وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي مَنْ لَا يُصْلِحُ إِيمَانَهُ إِلَّا الصِّحَّةُ وَلَوْ أَسْقَمْتُهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ مَنْ لَا يُصْلِحُ إِيمَانَهُ إِلَّا السِّقَمُ وَلَوْ أَصْحَحْتُهُ لَأَفْسَدَهُ ذَلِكَ، إِنِّي أُدَبِّرُ عِبَادِي بِعِلْمِي فِي قُلُوبِهِمْ إِنِّي عَلِيمٌ خَبِيرٌ**»[1].

وسأل رجل **سفيان الثوري** وقال له: ما لي أطلب الشيء من الله تعالى فيمنعني؟! قال: منع الله العطاء، لأنه لم يمنعك من بخل ولا افتقار ولا احتياج، وإنما يمنعك رحمة بك.

---

(١) حلية الأولياء (٨/ ٣١٨).

التواضع وتكلف أعمال المتواضعين:

ومن الوسائل المهمة للوصول إلى درجة اليأس من النفس: التواضع فلقد أخبرنا سبحانه وتعالي في كتابه أنه لا يحب المختال الفخور، الذي يمشي في الأرض مرحًا، وأخبرنا كذلك أنه يحب المتواضع المستكين، المتخشع، المتذلل له سبحانه.. والذي يقلل من قدر نفسه، وينسب كل فضل إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويعظم نعمه عليه، ولا يرى لنفسه قدرًا عنده.

فإذا علمت ذلك فلا بد أن تكلف نفسك ما يحبه مولاك وتترك ما يبغضه، وبداوم تكلف أفعال المتواضعين يُزال الكبر والعجب من قلوبنا.

إن إحصاء جوانب الفقر إلى الله عَزَّوَجَلَّ، والتفكر الدائم في رسائل المنع والحرمان، مهم جدًّا للوصول إلى درجة اليأس من النفس، والرؤية الدائمة لفضل الله، ولكن يبقى التواضع هو الترجمة العملية التي ترسخ هذه المعاني في القلب... فكما أن الإيمان قول وعمل، فإن التواضع هو الجانب العملي لما سبق ذكره.

يقول أبو حامد الغزالي: لا يتم التواضع بعد المعرفة إلا بالعمل[(١)]..

ويقول المحاسبي:

إن الكبر لا يليق إلا بالله عَزَّوَجَلَّ وحده، وأنه من يتكبر من عباده صار ممقوتًا عنده، ولقد أحب الله من عباده أن يتواضعوا، قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخَرُ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَبْغِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ**»[(٢)].

---

(١) إحياء علوم الدين (٣/ ٣٦٠).

(٢) رواه مسلم (٤/ ٢١٩٨ برقم: ٢٨٦٥).

فمن عقل هذا فلا بد أن يكلف نفسه ما يحبه مولاه منه، وهذا يزيل الكبر والعجب من قلبه وإن كان لا يرى نفسه مقصرًا.. فبمثل هذا زال التكبر عن الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، إذ علموا أن من نازع الله تعالى رداء الكبر قصمه. وقد أمرهم بأن يصغروا في أنفسهم حتى يعظم عند الله محلهم(١).

والتواضع مطلوب في كل وقت، ويشتد الحاجة إليه عند ورود النعم كما كان حال رسول الله ﷺ، عند دخوله مكة فاتحًا لها، وقد تعمم بعمامة سوداء وأحنى جبهته لله عَزَّوَجَلَّ حتى كادت ذقنه تمس ظهر بعيره، وكذلك كان حال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو يدخل بيت المقدس لتسلمه من النصارى وهو يلبس ثيابًا مرقعة، وقد مر علينا في الصفحات السابقة كيف استقبل النجاشي خبر انتصار المسلمين في بدر.

فإن قال قائل: ولماذا يشتد طلبه عند هذه المواضع؟!

لأن هذه المواضع من أكثر المواضع التي يشتد فيها إلحاح النفس على صاحبها بحمدها ونسيان شكر الله عَزَّوَجَلَّ، وعندما نسارع بالتواضع في هذه الأحوال فإننا بذلك نغلق الباب سريعًا أمام أنفسنا فلا تنتشي، ولا تستعظم، ولا تطالب بحمدها.

ومن فوائد ذلك أيضًا: أن الواحد منا يُري الله بهذا التواضع بأنه عبد له لا عبد لنفسه، وأن هذه النعم ما زادته إلا تعلقًا به، فتكون هذه الاستكانة وهذا التواضع بمثابة إقرار بذلك، وشكر لله عَزَّوَجَلَّ على إمداده.

تواضــع إذا ما نلت في الناس رفعة

فــإن رفيــع القوم مــن يتواضع

---

(١) الرعاية لحقوق الله.

■ من صور التواضع:

- **الجلوس مع المساكين وإعزازهم:**

فقد كان دعائه ﷺ: «..**اللَّهُمَ إِنِّي أَسْأَلُكَ فِعْلَ الخَيْرَاتِ، وَتَرْكَ المُنْكَرَاتِ وَحُبَّ المَسَاكِينِ**»[١].

يقول ابن رجب: حب المساكين أصل الحب في الله تعالى؛ لأن المساكين ليس عندهم من الدنيا ما يوجب محبته لأجله.. فبه تنال ولاية الله، وبه يوجد طعم الإيمان.. وكان داود عَلَيْهِ السَّلَامُ يجلس بين المساكين ويقول: يارب مسكين بين المساكين[٢].

- **عند الشدائد:**

سئل ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن خروج النبي ﷺ للاستسقاء فقال: خرج متواضعًا مبتذلًا متخشعًا مترسلًا متضرعًا...[٣].

وحبس لمطرف بن عبد الله قريب له: فلبس خلقان ثيابه وأخذ بيده قصبة، وقال: أتمسكن لربي لعله يشفّعني فيه[٤].

- **ارتداء الدون من الثياب في بعض الأوقات:**

قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ تَرَكَ اللِّبَاسَ تَوَاضُعًا لِلّهِ وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَيْهِ دَعَاهُ اللهُ يَوْمَ**

---

(١) رواه أحمد (٣٦/ ٤٢٢ برقم: ٢٢١٠٩)، والترمذي (٥/ ٣٦٨ برقم: ٣٢٣٥) وقال: حسن صحيح.
(٢) شرح حديث « اختصام الملأ الأعلى » لابن رجب (ص ٧٧، ٧٨) باختصار.
(٣) رواه أحمد (٥/ ٣٤٩ برقم: ٣٣٣١)، وابن ماجة (١/ ٤٠٣ برقم: ١٢٦٦)، وأبو داود (١/ ٣٠٢ برقم: ١١٦٥)، والترمذي (٢/ ٤٤٥ برقم: ٥٥٨)، وقال: حسن صحيح والنسائي (٣/ ١٥٦ برقم: ١٥٠٦).
(٤) شرح حديث « اختصام الملأ الأعلى » لابن رجب (ص ٧٧، ٧٨) باختصار.

الْقِيَامَةِ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ مِنْ أَيِّ حُلَلِ الإِيمَانِ شَاءَ يَلْبَسُهَا»[١].

- **في البيت:**

إليك هذه الوصية التي تجمع الكثير من صور التواضع:

قال أبو سعيد الخدري لأبي سلمة: عالج في بيتك من الخدمة ما كان يعالج رسول الله ﷺ في بيته.. كان يعلف الناضح، ويعقل البعير، وَيَقُمّ البيت، ويحلب الشاة، ويخصف نعله، ويرقع الثوب، ويأكل مع خادمه، ويطحن عنه إذا أعيا.. ويشتري الشيء من السوق، ولا يمنعه الحياء أن يعلقه بيده أو يجعله في طرف ثوبه.

وينقلب إلى أهله يصافح الغني والفقير والكبير والصغير، ويسلم مبتدئًا على كل من استقبله من صغير أو كبير، أسود أو أحمر، حر أو عبد من أهل الصلاة.

ليست له حلة لمدخله وحلة لمخرجه، لا يستحي أن يجيب إذا دعي، وإن كان أشعث أغبر، لا يحقر ما دُعي إليه وإن لم يجد إلا حشف الدقل[٢].

- **مع الناس:**

على الواحد منا ألا يطلب معاملة خاصة أو خدمة مميزة من الناس بسبب علمه أو عبادته أو منصبه، بل يكون فيهم كواحد منهم لا يتميز عنهم بشيء، كما كان حال عبد الرحمن بن عوف.. فلم يكن أحد يستطيع أن يعرفه من بين عبيده لتواضعه في زيه وملبسه[٣].

---

(١) رواه أحمد (٢٤/ ٣٩٤ برقم: ١٥٦٣١)، والترمذي (٤/ ٦٥٠ برقم: ٢٤٨١).

(٢) إحياء علوم الدين (٣/ ٥٥٢).

(٣) الزهد لأحمد بن حنبل (برقم: ١٩٨).

قال رجل من أصحاب ابن المبارك: كنت مع ابن المبارك يومًا فأتينا على سقاية والناس يشربون فيها، فدنا منها ليشرب ولم يعرفه الناس فزحموه ودفعوه، فلما خرج قال لي: ما العيش إلا هكذا.. يعني حيث لم نعرف ولم نوقر[١].

إن علو المنصب يجب أن يصاحبه زيادة في التواضع وخفض الجناح شكرًا لله عَزَّوَجَلَّ وحسمًا لمادة العجب والتكبر.

فقد استمر أبو بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في حلب الشاة لجيرانه بعد الخلافة، وقال لجارته التي ظنت أنه سيتوقف: بلى لعمري لأحلبنها لكم وإني لأرجو أن لا يغيرني ما دخلت فيه عن خلق كنت عليه[٢].

ولما بعث عمر بن الخطاب أبا هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أميرًا للبحرين دخلها وهو راكب على حمار يقول: طرِّقوا للأمير، طرِّقوا للأمير[٣].

ومر عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ على امرأة وهي تعصد العصيدة فقال: ليس هكذا يُعصد، ثم أخذ بالسوط فقال: هكذا، فأراها[٤].

ومن صور التواضع مع الناس: عدم الافتخار عليهم بشيء.

قال يحيي بن معين: ما رأيت مثل أحمد بن حنبل صحبناه خمسين سنة ما افتخر علينا بشيء مما كان فيه من الصلاح والخير.

---

(١) صفة الصفوة (٢/ ٣٢٣).

(٢) طبقات ابن سعد (٣/ ١٣٩).

(٣) ذكره القشيري في الرسالة (١/ ٢٨٠).

(٤) طبقات ابن سعد (٣/ ٢٣٩).

.. **ومنها:** عدم التصدر في المجلس، بل يجلس حيث ينتهي به المجلس.

قال علي بن ثابت: ما رأيت سفيان الثوري في صدر المجلس قط، إنما كان يقعد إلى جانب الحائط ويستند إلى الحائط ويجمع بين ركبتيه.

.. **ومنها:** الفرح بإقبال الناس على أقرانه، بل وتشجيعهم وإرسال الرسائل إليهم التي تدفعهم لمواصلة الدعوة بهمة ونشاط دون مبالغة في مدح يفسدهم.

.. **ومنها:** السعي في قضاء حوائج الناس بخاصة الأرامل والمساكين.

.. **ومنها:** أن تشرب من سؤر أخيك، وتُجيب دعوته ولو إلى أيسر شيء[١].

- **عدم التبختر في المشي أو التقعر في الكلام، والسجود على التراب كلما سنحت الفرصة.**

فقد كان عمر بن عبد العزيز لا يسجد إلا على التراب.

وقال عمر بن الخطاب لابنه ساعة وفاته:

اطرح وجهي يابني بالأرض لعل الله يرحمني... قال: فمسح خديه بالتراب[٢].

- **كان رسول الله ﷺ لَا يَأْنَفُ أَنْ يَمْشِيَ مَعَ الأَرْمَلَةِ وَالمِسْكِينِ فَيَقْضِيَ لَهُ الحَاجَةَ[٣].**

---

(١) صلاح الأمة في علو الهمة، بتصرف يسير.

(٢) صفة الصفوة.

(٣) رواه النسائي (٣/ ١٠٨ برقم: ١٤١٤)، وابن حبان (١٤/ ٣٣٣ برقم: ٦٤٢٣)، والحاكم (٢/ ٦٧١ برقم: ٤٢٢٥).

وكان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يجلس على الأرض ويأكل على الأرض[١]، وكان يأتي ضعفاء المسلمين، ويزورهم، ويعود مريضهم، ويشهد جنائزهم[٢].

وكان ﷺ يُؤتى بالتمر وفيه دود فيفتشه، يُخرج السوس منه[٣].

.. فلنقتدِ برسول الله ﷺ، ولنتكلف أفعال المتواضعين حتى تصير سجية من سجايانا، ولنعلم أن الممارسة العملية للتواضع لها دور كبير في تخليص النفس من العُجب والكبر.

قال ابن حزم في كتابه «الأخلاق والسير»: كانت فيّ عيوب.. ومنها عُجب شديد، فناظر عقلي نفسي بما يعرفه من عيوبها، حتى ذهب كله ولم يبقَ والحمد لله أثر، بل كلفت نفسي احتقار قدرها جملة واستعمال التواضع.

ومن أهم الوسائل العملية لليأس من النفس: الدخول إلى القرآن من بابه الصحيح كمصدر متفرد للشفاء التام ـ كما أسلفنا.

من أهم صفات القرآن أنه دواء يشفي القلوب ويزكي النفوس:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ ﴾ [الجمعة:٢]، ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾ [فصلت: ٤٤].

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (١٢/ ٦٧).

(٢) رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٠٦ برقم: ٣٧٣٥).

(٣) رواه ابن ماجة (٢/ ١١٠٦ برقم: ٣٣٣٣)، وأبو داود (٣/ ٣٦٢ برقم: ٣٨٣٢- ٣٨٣٣).

فكل ما سبق ذكره من أمور تخص النفس وما يزكيها، ويجعل قدرها عند صاحبها صغيرًا قد أفاض القرآن في بيانه، بل وكرره في مواضع كثيرة لتتم به دوام التذكرة والتبصرة بعلاقة الإنسان بنفسه وبربه.

فتجده كثيرًا ما يحذرنا من أنفسنا وخطورة تركها دون مجاهدة أو تزكية، ويضرب لنا الأمثلة على ما يمكن أن يصل إليه طغيانها كقوله تعالى:

﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [المائدة:٣٠].

ويذكرنا دومًا بحقيقة الفقر إلى الله وضرورة اليأس من النفس: ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ [سبأ:٥٠].

ويبصرنا كذلك بحقيقة ضعفنا وعجزنا وحاجتنا الماسة إلى الله: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الأنعام:٤٠].

ويذكرنا بنعم الله علينا.. كنعم الإيجاد والإمداد والتسخير والهداية والثبات في عشرات المواضع كقوله تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ﴾ [النحل: ٥٣].

ويعلمنا أدب العبودية لله عَزَّوَجَلَّ:

﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ ﴾ [الأعراف:١٨٨].

ويبين لنا كيف نقرأ الرسائل الإلهية.. رسائل المنع والعطاء.

كقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾ [غافر:١٣].

وقوله: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [يونس:٩٢].

ويذكرنا بحق الله وأن أعمالنا لن تكون سببًا في نجاتنا: ﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الصافات:٥٧].

ويقص علينا قصص أولئك الذين اغتروا بأنفسهم وظنوا أن لهم قدرًا فوق الناس، فما أغنت عنهم شيئًا حين جاء أمر الله، كما حدث لقارون الذي قال: ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ ﴾ [القصص:٧٨]، فماذا فعل الله به: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾ [القصص:٨١].

وفي القرآن كذلك نعيش مع نماذج للصالحين من الأنبياء والمرسلين والصديقين الذين أحسنوا عبوديتهم لربهم كإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي قال: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الشعراء:٧٨-٨٢].

ويقدم القرآن صورًا من تواضع هؤلاء الصالحين، كتواضع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ عندما استكثر على نفسه الرسالة، وطلب من الله عَزَّ وَجَلَّ إشراك أخيه هارون معه:

﴿ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ ﴾ [القصص:٣٤].

ومن أهم النماذج التي ينبغي أن نتفكر فيها في القرآن نموذج رسولنا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكيف رباه الله عَزَّ وَجَلَّ وأدّبه فأحسن تأديبه.

تأمل -على سبيل المثال- الخطاب الموجه له في سورة الإسراء بعد رحلة الإسراء والمعراج وبلوغه سدرة المنتهى، والتي لم يصل إليها أحد من البشر قبله، مثل قوله تعالى: ﴿ **لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا** ﴿٢٢﴾ ﴾ [الإسراء:٢٢].

وقوله: ﴿ **وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا** ﴿٧٤﴾ **إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا** ﴿٧٥﴾ ﴾

[الإسراء:٧٤، ٧٥].

وقوله تعالى: ﴿ **وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا** ﴿٨٦﴾ **إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا** ﴿٨٧﴾ ﴾ [الإسراء:٨٦، ٨٧].

.. وعندما سُئل رسول الله ﷺ عن أشياء حدثت في الماضي فأجاب سائليه بأنه سيجيبهم في الغد دون تقديم المشيئة، فتأخر الوحي أيامًا ثم نزل بالإجابة في سورة الكهف، ومعها قوله تعالى: ﴿ **وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا** ﴿٢٣﴾ **إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا** ﴿٢٤﴾ ﴾

[الكهف:٢٣، ٢٤].

.. ولم يكن هذا مع رسول الله ﷺ فقط ولكن كان مع الصحابة أيضًا، فلقد كان القرآن دائم التذكير لهم بفضل الله عليهم، وكيف كان حالهم في الماضي ليزداد انكسارهم لربهم وشكرهم له: ﴿ **وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ** ﴿١٠٣﴾ ﴾ [آل عمران:١٠٣].

وبعد كل نصر كانوا يحرزونه نجد القرآن ينزل مؤكدًا على أن الله هو الذي انتصر لتنغلق الأبواب أمام أنفسهم، وليزداد شكرهم لربهم، فبعد بدر قال تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ۚ﴾ [الأنفال:١٧].

وبعد الأحزاب قال تعالى: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ۚ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ [الأحزاب:٢٥-٢٧].

التربية الوقائية

ونحن نسير في طريقنا إلى الله نحتاج إلى القيام ببعض الأعمال التي من شأنها أن تغلق أبواب العجب والرياء أمام أنفسنا، فلا تجد معها مجالًا للاستعظام أو طلب المنزلة عند الناس.. ومن ذلك:

الإسرار بالعمل:

إن أهمية الإسرار بالعمل تكمن في حمايته من سرقة النفس بطلب المنزلة به عند الناس، فكم من أعمال بدأت خالصة لله عَزَّوَجَلَّ وهي بالسر، حتى إذا ما عرفها الناس بدأ صاحبها بالتفكير في منزلته عندهم، وهل ارتفعت بتلك الرؤية أم لا؛ ومن ثم فقد يجره ذلك إلى المراءاة بعمله.

.. إنه باب عظيم لسلب الإخلاص من العمل؛ لذلك كان دأب الصالحين الاجتهاد في إخفاء أعمالهم، قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ العَبْدَ التَّقِيَّ الغَنِيَّ الخَفِيَّ**»[١].

وعن الربيع بن صبيح قال: كنا عند الحسن فوعظ فانتحب رجل فقال الحسن: أما والله ليسألنك الله عَزَّوَجَلَّ يوم القيامة ماذا أردت بهذا[٢].

فلنعمل على إحاطة أعمالنا الصالحة بأسوار عالية تمنع نظر الناس إليها.

---

(١) رواه مسلم (٤/ ٢٢٧٧ برقم: ٢٩٦٥).

(٢) الزهد للإمام أحمد (ص ٢٧٠).

يقول الحسن: أدركت أقوامًا ما كان أحدهم يستطيع أن يُسَّر عملًا فيعلنه.. قد علموا أن أحرز العملين من الشيطان عمل السر[١].

وكان سلفنا الصالح يستحبون أن يكون للرجل خبيئة من عمل صالح، لا تعلم به حتى زوجته ولا أبناؤه ولا غيرهم.

لقد خرج عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في سواد الليل في ليلة من الليالي فرآه طلحة، فذهب عمر فدخل بيتًا، ثم دخل بيتًا آخر، فلما أصبح طلحة ذهب إلى ذلك البيت، فإذا بعجوز عمياء مقعدة، فقال لها: ما بال هذا الرجل يأتيك؟ قالت: إنه يتعاهدني منذ كذا وكذا، يأتيني بما يصلحني، ويخرج عني الأذى، فقال طلحة: ثكلتك أمك يا طلحة! أعثرات عمر تتبع[٢]؟!

وكان ابن المبارك يضع اللثام على وجهه عند القتال لئلا يُعرف، وقال الإمام أحمد: ما رفع الله ابن المبارك إلا بخبيئة كانت له[٣].

دوام محاسبة النفس واتهامها وسوء الظن بها:

فلتكن لنا مع أنفسنا كل يوم جلسة محاسبة نُحصي فيها ذنوبنا وأوجه تقصيرنا في جنب الله، ونتهم فيها أنفسنا بأنها وراء كل ذلك، ونهرع بعدها إلى الله عَزَّوَجَلَّ.. مستغفرين، منيبين، أواهين.

يقول الحسن البصري: لا يلقى المؤمن إلا يعاتب نفسه: ماذا أردت بأكلتي،

---

(١) الزهد للإمام أحمد (ص ٢٦٢).

(٢) حلية الأولياء (١/ ٤٧).

(٣) صفة الصفوة.

ماذا أردت بشربتي، والفاجر يمضي قدمًا لا يحاسب نفسه[١].

وقال: رحم الله عبدًا وقف عند همه، فإذا كان لله مضى، وإن كان لغيره تأخر[٢].

«علينا أن نتَّهم أنفسَنا دائمًا، وأن تكون عنايتنا بها عناية الرجل الموسوس إذا استشعر بدرجة حرارة بسيطة يعرض نفسَه على الطبيب»[٣].

ويقول يوسف بن أسباط: ما حاسبت نفسي قط إلا وظهر لي كأنني مراءٍ خالص.

ومن وسائل التربية الوقائية كذلك: الابتعاد عن مواضع المدح ومدافعته وقت حدوثه:

المدح هو الذبح كما قال رسول الله ﷺ[٤]؛ لأنه يجعل الممدوح يركن إلى نفسه، ويحمدها على أفعالها، ويظن أنه قد أصبح له مكانة عند الله بذلك، وتظل عبارات المدح عالقة بذهنه، يسترجعها كلما غدا أو راح، يفكر فيها فيزداد سروره بنفسه وركونه إلى حسن ظنه بها، فيفتر عن الاجتهاد في العمل، ويقل حذره من نفسه لشعوره بأنه قد نجا ووصل إلى ما لم يصل إليه الآخرون.

من هنا كان الذم الشديد لفاعله؛ لأنه يتسبب في إلحاق الضرر البالغ بمن

---

(١) ذم الهوى.

(٢) إغاثة اللهفان (١/ ١٣٤).

(٣) حديث الثلاثاء: (٣١٣).

(٤) «إياكم والتمادح فإنه الذبح» رواه أحمد (٢٨/ ١٠٩ برقم: ١٦٩٠٣) وابن ماجة (٢/ ١٢٣٢ برقم: ٣٧٤٣).

يمدحه، قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا رَأَيْتُمُ الْمَدَّاحِينَ فَاحْثُوا فِي وُجُوهِهِمِ التُّرَابَ**»[١].

لذلك كان السلف الصالح يدفعون المدح غاية الإمكان لعلمهم بخطورته، ولخوفهم أن يعجزوا عن السيطرة على نفوسهم إن استجابوا لعبارات المديح والإطراء وتفاعلوا معها.

قال المروزي: قلت لابن حنبل: وما أكثر الداعين لك، فتغرغرت عيناه، وقال: أخاف أن يكون هذا استدراجًا، أسأل الله أن يجعلنا خيرًا مما يظنون، ويغفر لنا ما لا يعلمون، وعندما مدحه شخص على أنه قد زهد في الناس، قال: ومن أنا حتى أزهد في الناس؟ الناس يريدون أن يزهدوا فيّ.

وقال له رجل: لا يزال الناس بخير ما منَّ الله عليهم ببقائك.. فقال له: لا تقل هذا يا أبا عثمان، لا تقل هذا يا أبا عثمان، ومن أنا في الناس[٢].

وقال رجل يومًا لابن عمر: يا خير الناس، وابن خير الناس، فقال: ما أنا بخير الناس، ولا ابن خير الناس، ولكن عبد من عباد الله، أرجو الله وأخافه والله لم تزالوا بالرجل حتى تهلكوه[٣].

ولكن.. ماذا نفعل إذا ما مُدح الواحد منا في وجهه، وتجاوب مع هذا المدح، وبدأ في استعظام نفسه وحمدها؟!

علينا أن نهرع إلى الله ونلجأ إليه، وندعوه بأن يقينا شر أنفسنا، وأن يعيننا

---

(١) رواه مسلم (٤/ ٢٢٩٧ برقم: ٣٠٠٢).

(٢) سير أعلام النبلاء (١١/ ٢١٥ - ٢٢٧) باختصار.

(٣) حلية الأولياء (١/ ٣٠٧).

عليها، وعلينا كذلك استعمال علاج مضاد لتعود النفس إلى ما كانت عليه قبل المدح، فنطلب من أحد المقربين إلينا النصيحة، ونعمل جاهدين على تحمل مرارة النقد ليعادل أثر المدح في النفس.

كان الوزير نظام المُلك يكثر من إدخال أحد الفقهاء عليه، فسئل في ذلك فقال: هذا الفقيه يدخل عليَّ فلا يطريني ولا يغرني بل يذكرني بذنوبي وتقصيري، فيخرج من عندي وقد غسلت نفسي من الكبر، ثم لا يقبل مني عطاء ولو اجتهدت في إقناعه، أما غيره فأشعر حين يخرجون من عندي أن نفسي تغتر ويعتريها غفلات[١].

يؤكد الماوردي على هذا العلاج فيقول:

فينبغي للعاقل أن يسترشد إخوان الصدق الذين هم أصفياء القلوب، ومرايا المحاسن والعيوب على ما ينبهونه عليه من مساويه، التي صرفه حسن الظن عنها، فإنهم أمكن نظرًا وأسلم فكرًا[٢].

عن عمرو بن مهاجر قال: قال عمر بن عبد العزيز: يا عمرو إذا رأيتني قد ملت عن الحق فضع يدك في تلابيبي ثم هزني، ثم قل: ماذا تصنع[٣]؟!

عدم الاستسلام للهزيمة أمام النفس، والرد السريع عليها:

... نعم، تعترينا لحظات ضعف أمام أنفسنا فنُعجب بها ونسكن إليها... فماذا نفعل عند هذه الحالة؟! هل نترك الأمر هكذا فيزداد إلحاح النفس علينا بطلب

---

(١) أبطال ومواقف (ص ٤٣٠).

(٢) أدب الدنيا والدين (ص ٢٣٥).

(٣) سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز (ص ٢٢٥).

حمدها واستعظامها، فنفقد سيطرتنا عليها شيئًا فشيئًا؟!

لقد كان الصحابة -رضوان الله عليهم- وسلفنا الصالح تمر بهم مثل هذه اللحظات فماذا كانوا يفعلون؟!

نادى عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالصلاة جامعة، فلما اجتمع الناس وكثروا؛ صعد المنبر؛ فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، وصلى على نبيه ﷺ، ثم قال: أيها الناس! لقد رأيتني أرعى على خالات لي من بني مخزوم. فيقبضن لي القبضة من التمر أو الزبيب، فأظل يومي وأي يوم. ثم نزل، فقال له عبد الرحمن بن عوف: يا أمير المؤمنين! ما زدت على أن قئمت نفسك -يعني: عبت-. قال: فقال: ويحك يا ابن عوف! إني خلوت؛ فحدثتني نفسي؛ قالت: أنت أمير المؤمنين؛ فمن ذا أفضل منك؟ فأردت أن أعرفها نفسها[1].

وقال عروة: رأيت أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعلى عاتقه قربة ماء، فقلت: يا أمير المؤمنين لا ينبغي لك هذا، فقال: لما أتاني الوفد سامعين مطيعين دخلت في نفسي نخوة فأحببت أن أكسرها، ومضى بالقربة إلى حجر امرأة من الأنصار فأفرغها في إنائها[2].

وصلى حذيفة يومًا بقوم فلما سلم من صلاته قال: لتلتمسن إمامًا غيري أو لتُصلن وحدانا، فإني رأيت في نفسي أنه ليس في القوم أفضل مني[3].

وكان عمر بن عبد العزيز إذا خطب على المنبر فخاف على نفسه العجب، قطع

---

(١) المجالسة وجواهر العلم (٤/ ٤٦٦).
(٢) الرسالة القشيرية (١/ ٢٧٩).
(٣) إحياء علوم الدين (٣/ ٣٤٩).

خطبته، وإذا كتب كتابًا فيه العجب مزقه، ويقول: اللهم إني أعوذ بك من شر نفسي.

وكتب رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى عامله على بعض الأمصار كتابًا يعظه فيه وقال في آخره: وإني لأعظك بهذا وإني لكثير الإسراف على نفسي غير محكم لكثير من أمري[١].

عدم طلب المسئولية:

لماذا ينهى الإسلام عن طلب المسئولية أو الإمارة كما قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّا وَاللهِ لَا نُوَلِّي عَلَى هَذَا الْعَمَلِ أَحَدًا سَأَلَهُ وَلَا أَحَدًا حَرَصَ عَلَيْهِ**»[٢]؟!

لأن هذا الطلب وهذا الحرص يحمل في طياته تزكية للنفس وحسن الظن بها، وبأن قدراتها وإمكاناتها تؤهلها للقيام بهذا العمل، وهذا ينافي الحقيقة، فثقتنا ينبغي أن تكون بالله أولًا وآخرًا، فمنه نستمد قوتنا وقدرتنا على القيام بأي عمل، فلو تخلى عنا لما استطعنا أن نقوم بأقل الأعمال.

من هنا كان التحذير الشديد من طلب الإمارة وتمنيها.

قال رسول الله ﷺ: «**يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ سَمُرَةَ لَا تَسْأَلِ الإِمَارَةَ، فَإِنَّكَ إِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا، وَإِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا**»[٣].

ومن الصور التي ينبغي الابتعاد أيضًا عنها: تمني القيام بعمل من الأعمال انطلاقًا من الثقة بالنفس والإعجاب بها.

---

(١) لطائف المعارف (ص:١٩).

(٢) رواه البخاري (٩/ ٦٤ برقم: ٧١٤٩)، ومسلم (٣/ ١٤٥٦ برقم: ١٧٣٣) واللفظ له.

(٣) رواه البخاري (٨/ ١٢٧ برقم: ٦٦٢٢)، ومسلم (٣/ ٦٢٧٣برقم: ١٦٥٢) واللفظ له.

قال رسول الله ﷺ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ وَسَلُوا اللهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا**»[١].

ففي الحديث ما يدل على عدم تمني لقاء العدو لما فيه من صور الإعجاب والاتكال على النفس والوثوق بالقوة وقلة الاهتمام بالعدو، وكل ذلك يباين الاحتياط والأخذ بالحزم[٢].

وليس معنى هذا الهروب من المسئولية ولكن المقصد عدم تشوّف النفس إليها والسعي إلى نيلها، وكذلك استكثارها على أنفسنا إذا ما كلفنا بها والخوف والحذر من تبعاتها وتمني تركها.

البدء بتزكية النفس:

ينبغي على الواحد منا أن يبدأ مشواره العلمي أو الدعوي بالاهتمام بتزكية نفسه والعمل على اليأس منها، ومعرفة ما يُفسد عليه عمله، كما قال الحسن البصري: لا يزال العبد بخير ما علم الذي يُفسد عليه عمله[٣].

... نعم سنظل طيلة حياتنا في جهاد دائم مع أنفسنا حتى الموت، ولكن لا بد لنا من وقفة طويلة معها في البداية لنتعرف عليها فنحذر منها، ونضع الأسس الصحيحة في التعامل معها، أما أن نترك أنفسنا هكذا ثم نخوض في العلم أو الدعوة، فالخطر العظيم يتهددنا، بخاصة إذا ما ابتُلي أحدنا بالتعرض للأضواء والحديث أمام الناس.

---

(١) رواه البخاري (٤/ ٥١ برقم: ٢٩٦٥)، ومسلم (٣/ ١٣٦٢ برقم: ١٧٤٢).

(٢) عون المعبود في شرح سنن أبي دواد (٧/ ٢١١).

(٣) الزهد لابن المبارك (١/ ٥٢٨ برقم: ١٥٠٠).

يقول أبو حامد الغزالي: إذا لم يهذِّب العبدُ نفسَه ويزكي قلبه، فإنه إن خاض في العلم – أي علم كان – صادف العلم من قلبه منزلًا خبيثًا، فلم يطب ثمره ولم يظهر في الخير أثره.

فالعلم تحفظه الرجال فتحوله على قدر هممها وأهوائها، فيزيد المتكبر كبرًا والمتواضع تواضعًا؛ وهذا لأن من كانت همته الكبر وهو جاهل فإذا حفظ العلم وجد ما يُتكبر به فازداد كبرًا.

وإذا كان الرجل خائفًا مع جهله، فازداد علمًا علم أن الحجة قد تأكدت عليه فيزداد خوفًا وإشفاقًا وذلًّا وتواضعًا.. فالعلم من أعظم ما يُتكبر به[١].

ولله در مَن قال: «إن العمل مع أنفسنا هو أول واجباتنا، فجاهدوا أنفسكم، ويقول: إن معركتنا معركة تربوية... ومن أقواله كذلك: أنا لا أخشى عليكم الحكومات ولا الأحزاب ولكن أخشى عليكم أنفسكم»[٢].

نسيان العمل بعد القيام به:

علينا أن نعمل جاهدين على نسيان ما قمنا به من أعمال صالحة، فلا نحصي نفقاتنا في سبيل الله، أو عدد ختماتنا للقرآن، أو ركعات صلاة الليل، أو....، ولا نسأل الناس كذلك عن رأيهم فيما قمنا به من أعمال.

فهذا كله من شأنه أن يفتح الباب أمام النفس كي تطلب من صاحبها حمدها واستعظامها، بل تولد داخله شعورًا بالأمان كلما تذكر حجم أعماله الصالحة.

---

(١) إحياء علوم الدين، شرح سنن أبي دواد (٧/ ٢١١).

(٢) مجموعة الرسائل.

ومن هنا أيضًا كان الصالحون يوصون بالاستتار من الكرامة ونسيانها وإلا صارت باب فتنة عظيمة على صاحبها.

دخل إبراهيم الحصري على أحمد بن حنبل فقال: إن أمي رأت لك منامًا، هو كذا وكذا، وذكرت الجنة، فقال: يا أخي إن سهل بن سلامة كان الناس يخبرونه بمثل هذا وخرج إلى سفك الدماء وقال: الرؤيا تسر المؤمن ولا تغره[1].

(١) سير أعلام النبلاء (١١/ ٢٢٧).

مُعينات على الطريق

لكي نستمر في جهاد أنفسنا وإلزامها طاعة الله بصدق وإخلاص، نحتاج دومًا إلى بعض المعينات التي من شأنها أن تشحذ هممنا وتقوي عزائمنا وتيسر لنا القيام بالوسائل المذكورة آنفًا.

فمن تلك المُعينات:

دوام اللجوء إلى الله عَزَّوَجَلَّ بألا يخذلنا ويتركنا إلى أنفسنا:

فلا طاقة لأحد بنفسه، ولا قدرة له على الصبر على ضغوطها وإلحاحها في نيل ما تشتهيه، ولو تركنا سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وتخلى عنا في مواجهتنا مع أنفسنا، ما قمنا بطاعة ولا تركنا معصية، كما قال الرسول ﷺ: «**وَإِنَّكَ إِنْ تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي تَكِلْنِي إِلَى ضَيْعَةٍ، وَعَوْرةٍ، وَذَنْبٍ، وَخَطِيئَةٍ، وَإِنِّي لَا أَثِقُ إِلَّا بِرَحْمَتِكَ...**»[١].

فلا طريق أمامنا إلا دوام اللجوء إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وسؤاله سؤال الفقير المسكين، المشرف على الغرق بأن ينقذنا من أنفسنا وألا يكلنا إليها طرفة عين.

دوام الإنفاق في سبيل الله:

جُبلت أنفسنا على الشُّح وحب المال، كما قال تعالى: ﴿ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ ﴾ [الفجر: ٢٠].

---

(١) رواه أحمد (٣٥/ ٥٢٠ برقم: ٢١٦٦٦).

وقال رسول الله ﷺ: «**لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ لَابْتَغَى وَادِيًا ثَالِثًا، وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ تَابَ**»[1].

ولقد خلق الله عَزَّوَجَلَّ النفس بهذه الصفة، وطالبنا بتطهيرها منها، وجعل من أهم الوسائل لذلك: دوام الإنفاق في سبيل الله.

قال تعالى: ﴿ **خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا** ﴾ [التوبة:١٠٣].

فبالإنفاق تطهر النفوس وتتزكى فيسهل بعد ذلك قيادها: ﴿ **وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩** ﴾ [الحشر:٩].

ولكي ننتفع بهذه الوسيلة انتفاعًا كاملًا لا بد لنا من دوام الإنفاق اليومي، قال تعالى: ﴿ **ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٢٧٤** ﴾ [البقرة:٢٧٤].

ولا عذر لأحد في ترك الإنفاق؛ فالله عَزَّوَجَلَّ لم يحدد لنا قدرًا معينًا لنتصدق به، فالباب مفتوح للجميع.. فلننفق ولو ما يعادل شق تمرة، فإن لم نجد فلنصنع المعروف، ونسعى في قضاء حوائج الناس، ونحضهم على الإنفاق.

ولتيسير إخراج الصدقة يمكننا تخصيص صندوق أو مظروف في البيت نضعها فيه، ونجمعها كل مدة لنعطيها لمن يستحقها.

الخوف من الله عَزَّوَجَلَّ:

الخوف من الله عَزَّوَجَلَّ هو أفضل سوط تقاد به النفس وتُلجم.

---

(١) رواه البخاري (٨/ ٩٣ برقم: ٦٤٣٩)، ومسلم (٢/ ٧٢٥ برقم: ١٠٤٨) واللفظ له.

قال تعالى: ﴿ **وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾** ﴾ [النازعات:٤٠- ٤١]، فبالخوف يسهل المحافظة على وجود الإخلاص في الأعمال وعدم سطوة النفس عليها: ﴿ **وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾** ﴾ [الإنسان:٨،٩].

ما الذي دفع هؤلاء إلى القيام بهذا الفعل؟

يجيب القرآن عن هذا السؤال بقوله تعالى على لسانهم: ﴿ **إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾** ﴾ [الإنسان:١٠].

إن الخوف هو الذي يرهب النفس ويمنعها من الاسترسال في طغيانها، كما جاء في قصة ابني آدم: ﴿ **لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾** ﴾ [المائدة:٢٨].

فلباس التقوى خير لباس يستر العورات:

من هنا كان من الضروري العمل على زيادة مساحة الخوف من الله في القلب بكثرة ذكر الموت، والتوقع الدائم لقدومه، وبالاستماع كذلك إلى المواعظ والقراءة في كتب الرقائق وزيارة المرضى وأصحاب الحالات الحرجة.

قال رسول الله ﷺ: «**أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَادِمِ اللَّذَّاتِ: الْمَوْتِ، فَمَا ذَكَرَهُ عَبْدٌ قَطُّ وَهُوَ فِي ضِيقٍ إِلَّا وَسَّعَهُ عَلَيْهِ، وَلَا ذَكَرَهُ وَهُوَ فِي سَعَةٍ إِلَّا ضَيَّقَهُ عَلَيْهِ**»[(١)].

والمقصد من كثرة ذكر الموت: تكرار التفكر فيه، وفي المراحل التي سنمر

(١) رواه بهذا اللفظ ابن حبان في صحيحه (٧/ ٢٦٠ برقم: ٢٩٩٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٣/ ١٣٩ برقم: ١٠٠٧٦).

عليها بعده، وتذكُّر من سبقنا إليه، ويتحقق أيضًا بزيارة المقابر وتغسيل الموتى واتباع الجنائز وكتابة الوصية مع المداومة على قراءتها وإدخال التعديلات اللازمة عليها.

قال رسول الله ﷺ لأبي ذر: «**زُرِ الْقُبُورَ تَذْكُرْ بِهَا الآخِرَةَ، وَاغْسِلِ الْمَوْتَى، فَإِنَّ مُعَالَجَةِ جَسَدٍ خَاوٍ مَوْعِظَةٌ بَلِيغَةٌ، وَصَلِّ عَلَى الجَنَائِزِ لَعَلَّ ذَلِكَ يُحْزِنُكَ، فَإِنَّ الْحَزِينَ فِي ظِلِّ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[1].

الصيام:

إن تأثير الصيام على النفس معروف ومجرّب، فبه تضعف قوى النفس، ويسهل قيادتها؛ لذلك كانت نصيحة رسول الله ﷺ لمن لم يستطع الزواج من الشباب بأن يكثر من الصوم ليطفئ به نار شهوته.

قال رسول الله ﷺ: «**يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ البَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ**»[2].

إن النفس -كما يقول أبو حامد الغزالي- لا تنكسر، ولا تذل بشيء كما تُذل بالجوع فعندها تسكن لربها، وتخشع له، وتقف على عجزها وذلها[3].

وفي المقابل علينا ألا نبالغ في التقلل من الطعام والشراب حتى لا تنهار قوانا فنضعف عن القيام بالواجبات، فخير الأمور الوسط، وخير الهدي هدي محمد ﷺ.

---

(١) رواه الحاكم (٤/ ٣٦٦ برقم: ٧٩٤١).

(٢) رواه البخاري (٧/ ٣ برقم: ٥٠٦٥)، ومسلم (٢/ ١٠١٨ برقم: ١٤٠٠) واللفظ له.

(٣) إحياء علوم الدين.

يقول ابن رجب: كان النبي ﷺ يتوسط في إعطاء نفسه حقها، ويعدل فيها غاية العدل، فيصوم ويُفطر ويقوم وينام، وينكح النساء، ويأكل ما يجد من الطيبات كالحلواء والعسل ولحم الدجاج، وتارة يجوع حتى يربط على بطنه الحجر[١].

ومن المعينات كذلك: كثرة الرباط في المسجد:

للمكث في المسجد فوائد عظيمة.. منها:

ربط القلب على الطاعة والنفس عن المعصية، قال ﷺ: «**أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللهُ بِهِ الْخَطَايَا، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟**» قالوا: بلى يارسول الله، قال: «**إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ**»[٢].

ومن فوائده أيضًا: تنوير القلب وزيادة مساحة الإيمان فيه فتقوى إراداته وتزداد قدرته على مقاومة النفس.

مصاحبة الصالحين:

من أهم الوسائل التي تعين المسلم على استمراره في جهاد نفسه: مصاحبة الصالحين والارتباط بهم، والالتحاق بالمحاضن والمخيمات التربوية، ففيها يجد من يتعهده بالتربية والتكوين، وتحويل المعارف إلى سلوك، وفيها كذلك تُحبس النفس على طاعة الله كما قال تعالى: ﴿**وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ**

---

(١) لطائف المعارف (ص ١٣٩، ١٤٠).

(٢) رواه مسلم (١/ ٢١٩ برقم: ٢٥١).

﴿أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف:٢٨].

إن الواحد منا يسهل عليه إخلاف الوعد مع نفسه، ولكنه يصعب عليه أن يخلفه مع غيره، ويصعب عليه أيضًا اكتشاف جوانب ضعفه بمفرده، لذلك كانت حاجتنا ضرورية للوجود في بيئة صالحة لا يكتفي أفرادها بوعظ بعضهم البعض فقط؛ ولكن بمتابعتهم كذلك: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾.

فلنبحث عن هؤلاء الصالحين الذين يعملون على إقامة الإسلام في قلوبهم، وعلى أرضهم.

وليسعك بيتك:

بعد أن يقوم كل منا بأداء واجباته الدينية والدنيوية عليه أن يلزم بيته، فيؤدي حقوق أهله، وأولاده، ثم يهرع إلى محرابه حيث مصحفه وسواكه، فيعيش مع القرآن والذكر والصلاة والمناجاة ومحاسبة النفس.

يقول ابن تيمية: ولا بد للعبد من أوقات ينفرد بها بنفسه في دعائه وصلاته وتفكره ومحاسبة نفسه وإصلاح قلبه، وما يختص به من الأمور التي لا يشركه فيها غيره، فهذا يحتاج فيها إلى انفراد بنفسه، إما في بيته كما قال طاووس: نعم صومعة الرجل بيته فيها يكف سمعه وبصره، وإما في بيت غيره[١].

وهنا أمر جدير بالانتباه وهو أن النفس قد تستلذ بهذا الوضع، وشيئًا فشيئًا يثقل عليها الخروج إلى الناس، والقيام بواجباتها نحوهم من قضاء حوائجهم وأمرهم

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٤٢٥ – ٤٢٩) باختصار.

بالمعروف ونهيهم عن المنكر، والعمل على إقامة الدين، بل تبدأ في تبرير قعودها وعزلتها بإثارة الشبهات حول جدوى العمل للإسلام في ظل شيوع الفساد وكثرة الفتن.

بلغ عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رجالًا خرجوا من الكوفة ونزلوا قريبًا يتعبدون فأتاهم، ففرحوا بمجيئه، فقال لهم: ما حملكم على ما صنعتم؟

قالوا: أحببنا أن نخرج من غمار الناس نتعبد، فقال عبد الله: لو أن الناس فعلوا مثل ما فعلتم، فمن كان يقاتل العدو؟ وما أنا ببارح حتى ترجعوا[١].

(إن مطلوب الصادق هو رضا ربه، وتنفيذ أوامره وتتبع محابه، فهو متقلب فيها يسير معها أين توجهت ركائبها... فبينما هو في صلاة إذ رأيته في ذكر، ثم في غزو، ثم في أمر بمعروف، أو نهي عن منكر، أو في قيام بسبب فيه عمارة الدين والدنيا، ثم في عيادة مريض أو تشييع جنازة أو نصرة مظلوم.. إلى غير ذلك من أنواع القرب والمنافع)[٢].

فأحبه إلى الله ينبغي أن يكون أحبه إلينا، وإن أدى ذلك إلى خروج المرء من لذة مناجاته لربه ومكابدته مخالطة الناس.

---

(١) الزهد لابن المبارك (ص ٣٩٠).

(٢) تهذيب مدارج السالكين (ص ٤٠٠).

احذر: أمامك بعض العقبات

نعم، إن أهم عقبة تقف أمام كل من يعزم على السير إلى الله هي نفسه التي بين جنبيه، ومع ذلك تبقى عقبات أخرى ينبغي علينا معرفتها والعمل على تجاوزها، حتى يستقيم سيرنا ونصل بمشيئة الله إلى غايتنا.

فمن هذه العقبات: التشدُّد:

مبعث هذه العقبة: قوة الإيمان وشدة الورع والخوف من ارتكاب الحرام وكل ما فيه شبهة، فإن لم يصحب ذلك فهم صحيح للدين؛ فسيؤدي بصاحبه إلى التشديد على نفسه وعلى من حوله في غير موضع التشديد.

ولقد كان رسول الله ﷺ دائم التحذير من هذه العقبة.

عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ**» قالها ثلاثًا[1].

وتأمل ما قاله رسول الله ﷺ لعثمان بن مظعون رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**يَا عُثْمَانُ! أَرَغِبْتَ عَنْ سُنَّتِي؟!** قال: لا والله يا رسول الله، ولكن سنتك أطلب، فقال: **فَإِنِّي أَنَامُ وَأُصَلِّي وَأَصُومُ وَأَفْطُرُ وَأَنْكِحُ النِّسَاءَ، فَاتَّقِ اللهَ يَا عُثْمَانُ فَإِنَّ لِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِضَيْفِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَصُمْ وَأَفْطِرْ وَصَلِّ وَنَمْ**»[2].

---

(١) رواه مسلم (٤/ ٢٠٥٥ برقم: ٢٦٧٠)، والمتنطعون أي المتعمقون المتشددون في غير موضع التشديد.

(٢) رواه أحمد (٤٣/ ٣٣٤ برقم: ٢٦٣٠٨)، وأبو داود (٢/ ٤٨ برقم: ١٣٦٩).

إن هذه العقبة لمن أشد العقبات خطورة؛ لأن صاحبها يظن أنه يفعل الأفضل؛ ومن ثم فلا يكاد يُعطي لأحد سمعه.

وتخطي هذه العقبة يستلزم منا فهمًا صحيحًا للإسلام بين الإفراط والتفريط.

قال رسول الله ﷺ: «**سَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا**»[١].

والمراد بالتسديد -كما يقول ابن رجب- العمل بالسداد وهو القصد، والتوسط بين الإفراط والتفريط.. فمن مشى في طاعة الله على التسديد والمقاربة فليبشر، فإنه يصل ويسبق الدائب المجتهد في الأعمال... وخير الهدي هدي محمد ﷺ.

فمن سلك طريقه كان أقرب إليه من غيره، وليست الفضائل بكثرة الأعمال البدنية، ولكن بكونها خالصة لله عَزَّوَجَلَّ، صوابًا على متابعة السنة، وبكثرة معارف القلوب وأعمالها.

فأفضل الناس من سلك طريق النبي ﷺ وخواص أصحابه في الاقتصاد في العبادات البدنية، والاجتهاد في الأحوال القلبية، فإن سفر الآخرة يقطع بسير القلوب لا بسير الأبدان؛ لذلك قال بعض السلف: ما سبقكم أبو بكر بكثرة صوم ولا صلاة ولكن بشيء وقر في صدره[٢].

ومن العقبات ترك الفاضل وفعل المفضول:

لا ييأس الشيطان من النيل منا ووضع العقبات أمامنا ليتعطل سيرنا إلى الله ولو قليلًا، والسعيد من عرف مداخل الشيطان ومكايده ونوعية العقبات التي يضعها

(١) رواه البخاري (٨/ ٩٨ برقم: ٦٤٦٧)، ومسلم (٤/ ٢١٧١ برقم: ٢٨١٨).

(٢) المحجة في سير الدلجة لابن رجب (ص ٤٦ – ٥٧) باختصار.

أمامه، ولنتذكر أن الشيطان حين يصعب عليه الدخول على العبد من أبواب تفسد عليه عمله، فإنه ينتقل إلى أبواب أخرى تزين له ترك فعل الفاضل من العمل، ليفعل المفضول.

يقول ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ليس العاقل الذي يعلم الخير من الشر، ولكن العاقل الذي يعلم خير الخيرين وشر الشرين[١].

فلا بد لنا من معرفة مراتب الأعمال، وماذا نفعل عند تعارض المصالح أو المفاسد مع بعضها البعض، إذا ما أردنا تخطي هذه العقبة.

ولقد أنكر الإمام أبو حامد الغزالي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- على البعض عدم مراعاتهم لمراتب الأعمال والأحكام فقال: وفرقة أخرى حرصت على النوافل ولم يعظم اعتدادها بالفرائض، نرى أحدهم يفرح بصلاة الضحى، وبصلاة الليل، وأمثال هذه النوافل، ولم يجد للفريضة لذة ولا يشتد حرصه على المبادرة بها في أول الوقت، ينسى قول الرسول ﷺ فيما يرويه عن ربه:

«وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ»[٢].

وترك الترتيب بين الخيرات من جملة الشرور، بل قد يتعين في الإنسان فرضان: أحدهما يفوت، والآخر لا يفوت، أو فضلان: أحدهما يضيق وقته، والآخر يتسع وقته، فإن لم يحفظ الترتيب فيه فهو مغرور.

ونظائر ذلك أكثر من أن تحصى، فإن المعصية ظاهرة والطاعة ظاهرة، وإنما

(١) مجموع الفتاوى (٢٠/ ٥٤).

(٢) أخرجه البخاري (٨/ ١٠٥ برقم: ٦٥٠٢).

الغامض تقديم بعض الطاعات على بعض، كتقديم الفرائض كلها على النوافل، وتقديم فروض الأعيان على فروض الكفاية، وتقديم فرض كفاية لا قائم به على ما قام به غيره، وتقديم الأهم من فروض الأعيان على ما دونه، وتقديم ما يفوت على ما لا يفوت، وهذا كما يجب تقديم حاجة الوالدة على حاجة الوالد.. وكذلك من لا يفي ماله بنفقة الوالدين والحج، فربما يحج وهو مغرور، بل ينبغي أن يقدم حقهما على الحج، وهذا من باب تقديم فرض أهم على فرض هو دونه.

وكذلك قد تصيب ثوبه النجاسة، فيغلظ القول على أبويه وأهله بسبب ذلك، فالنجاسة محذورة، وإيذاؤهم محذور، والحذر من الإيذاء أهم من الحذر من النجاسة.

وأمثلة تقابل المحذورات والطاعات لا تنحصر، ومن ترك الترتيب في جميع ذلك فهو مغرور، وهذا غرور في غاية الغموض؛ لأن المغرور فيه طاعة إلا أنه لا يفطن لصيرورة الطاعة معصية حيث ترك بها طاعة واجبة هي أهم منها[1].

ومما يعيننا على تخطي هذه العقبة: التفكر في القرآن والعيش مع معانيه، فالقرآن يرسم في ذهن من ينشغل به خريطة واضحة للإسلام بنسبها الصحيحة، فيعطي لكل أمر من الأمور حجمه الصحيح ومكانه في سلم الأولويات.

ومن المعينات كذلك: دراسة فقه الأولويات ومعرفة مراتب الأعمال، دون أن يجر ذلك إلى التساهل في غير موضعه، ولنعلم أن الحسنة بين سيئتين.

---

(١) إحياء علوم الدين (٣/ ٤٠٣ – ٤٠٤) باختصار.

الذنوب:

وقبل أن نترك الحديث عن العقبات أذكر نفسي وإخواني بأهم عقبة يمكن أن توقف سيرنا بل وتردّنا على أعقابنا ألا وهي الذنوب... فلنحرص على الابتعاد عن مسبباتها، وإذا ما انزلقت أقدامنا في واحدة منها فعلينا بالمسارعة إلى الاستغفار والتوبة إلى الله، كما قال تعالى: ﴿ **وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ١٣٥** ﴾ [آل عمران:١٣٥].

ولنضع هذا الحديث نصب أعيننا:

عن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ صَاحِبَ الشِّمَالِ لَيَرْفَعُ الْقَلَمَ سِتَّ سَاعَاتٍ عَنِ الْعَبْدِ الْمُسْلِمِ الْمُخْطِئِ، فَإِنْ نَدِمَ وَاسْتَغْفَرَ مِنْهَا أَلْقَاهَا، وَإِلَّا كُتِبَتْ وَاحِدَةً**»[١].

(١) رواه الطبراني في الكبير (٨/ ١٨٥).

الخاتمة

أخي في الله:

... تلكم بعض ملامح الطريق إلى الربَّانية، فهل توافقني على أهمية سعينا نحو الوصول إليها؟!

وماذا لو وضعنا هذا الهدف نُصب أعيننا، وعملنا على تحقيقه في الفترة القادمة؟

فلنبدأ إذن من الآن، ولنضع لأنفسنا برنامجًا نسير عليه، ونلتزم به، من خلال الوسائل المشار إليها في الصفحات السابقة وغيرها..

هذا البرنامج يحتاج منا في البداية إلى قوة دافعة وعزيمة قوية، وهذا لن يتحقق إلا من خلال الإلحاح على الله والاستعانة الصادقة به، ودعائه دعاء المضطر المشرف على الغرق.

ومما سيسهل لنا بمشيئة الله عَزَّوَجَلَّ الاستمرار في تطبيق هذا البرنامج:

الدخول إلى القرآن من بابه الصحيح لتحصيل الهداية والشفاء والتغيير، وإغلاق كل الأبواب الجانبية.. فلا طريق للربانية التامة إلا من خلال القرآن.

فلنُقبل عليه ونلزمه ونتجرد له، ولنترك أنفسنا له، ولنتخذه دليلًا إلى الله، وإلى صراطه المستقيم، فالقرآن -بإذن الله-كفيل بأن يجعلنا في حالة دائمة من دوام التذكر، ووضوح الرؤية لحقيقة وجودنا وعبوديتنا لله عَزَّوَجَلَّ، وسيدفعنا -كلما جلسنا

معه- على الاستمرار في القيام بالوسائل السابقة بل وسيضيف عليها وسائل جديدة.

ومع المداومة على القيام بهذه الوسائل سيبدأ كل منا -بعون الله وتوفيقه- في الشعور بأن علاقة خاصة قد بدأت تنمو بينه وبين ربه؛ مما سيدفعه إلى حب الخلوة به، وكثرة مناجاته، والأنس بذكره، ودوام الفرار إليه.

.. ومع هذا كله؛ علينا أن نكون شديدي الحذر من أنفسنا، فهي العقبة الكبرى بيننا وبين الله، فينبغي ألا نركن إليها، أو نثق بها، ولنعمل على جهادها بالوسائل المذكورة في الصفحات السابقة وغيرها، مع التركيز على التربية الوقائية، والعلاجات الفورية التي تضع النفس في حجمها الصحيح، ولا ننس القرآن فهو خير معين لنا على أنفسنا.

وخلاصة القول أن القرآن يحتوي على كل أسباب السعادة والهداية والشفاء، وستتأكد لدينا -بإذن الله- هذه الحقيقة عندما نقبل على القرآن وندخل إليه من بابه الصحيح..

وفي النهاية:

نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يتقبَّل منَّا هذا العمل، وأن يجعلَه خالصًا لوجهه الكريم، وأن يجزي عنا كل من ساهم فيه خير الجزاء.

والحمد لله أولًا وآخرًا... الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات... الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

وصلِّ اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

الفصل الخامس

طريق الربانية

الفصل السادس

عقبات في طريق الربانية

الموضوع الصفحة

الموضوع **الصفحة**